الباب الأول
الإطار العام لحياته

الفصل الأول

مراحل حياته

أ ــ أصله:

تحدث القدماء عن أصل حماد، فأجمعوا على تحديد موطنه بأنه من بلاد الديلم خاصة. وهناك روايتان فيما يتعلق بموطنه ونسبه:

الأولى:

وهي الرواية التي تجعل أباه من سبي ابن زيد الخيل أو حفيده، والتي تقول:

١ ــ «حماد بن هرمز، كان **أبوه من سبي مكنف بن زيد الخيل وكان ديلمياً**»[١].

٢ ــ «حماد بن هرمز، **وكان هرمز من سبي مكنف بن زيد الخيل**، وكان ديلمياً»[٢].

[الثانية:

وهي الرواية التي تجعل أباه إما من سبي الأولَين، فباعاه إلى بني بكر، وإما من سبي بني بكر وولاؤه في شيبان، تقول هذه الرواية:

---

(١) ابن قتيبة، المعارف، ص ٢٣٥.

(٢) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٧٣.

١ ــ «حماد بن ميسرة... مولى بني شيبان.. الأصمعي. قلت لحماد: ممن أنتم قال: كان أبي من سبي سلمان بن ربيعة، فطرحتنا سلمان لبني شيبان، فولاؤنا لهم»[١].

٢ ــ «أبو القاسم حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد، وكان سابور يكنى أبا ليلى، من سبي الديلم، سباه (ابن) عروة بن زيد الخيل، ووهبه لابنته ليلى، يخدمها خمسين سنة، ثم ماتت، فبيع بمئتي درهم، فاشتراه عامر بن مطر الشيباني وأعتقه»[٢].

٣ ــ «حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي، مولى بني بكر ابن وائل، وقيل مولى مكنف بن زيد الخيل، الكوفي المعروف بالراوية»[٣].

٤ ــ «أبو القاسم حماد بن أبي ليلى سابورَ، وقيل: ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي، مولى بني بكر بن وائل»[٤].

وسواء أكان الذي سبى أباه، هو مكنف بن زيد الخيل، حسب رواية ابن قتيبة، أو ابن أخيه عروة بن زيد الخيل، حسب رواية ابن النديم، فإن المدة الزمنية الطويلة التي قضاها والده في خدمة ليلى بنت عروة (خمسين سنة)، لهي دليل على أن السبي وقع في أثناء الفتوحات الإسلامية الأولى، ثم بيع حماد وأبوه إلى بني شيبان.

وتذكر رواية أوردها المبرد أن حماداً روى لابنة عروة، ليلى، خبراً عن واقعة اشترك فيها زيد الخيل[٥].

---

(١) الأصفهاني، الأغاني جـ٦، ، ص ٦٨.
(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ١٠٤.
(٣) ياقوت، معجم الأدباء، جـ ٤، ص ١٣٧.
(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٦.
(٥) الكامل، جـ ٢، ص ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.

ويقدِّم تاريخ ميلاد حماد، حوالى سنة ٧٥ هـ، أو ٩٥ هـ، وهو ما سنناقشه بعد قليل، دليلاً آخر على قدم هذا السبي، فإذا طرحنا خمسين سنة من خمس وتسعين، فالباقي هو خمس وأربعون (٩٥ ـ ٥٠= ٤٥) وهنا نقترب جداً من عصر الفتوحات تلك، ونكون قد اقتربنا أكثر لو أخذنا بالرأي الذي يجعل ميلاده سنة ٧٥ هـ (٧٥ ـ ٥٠= ٢٥).

أما الخلاف حول سلسلة نسبه، فيَحُلُّه اتفاق ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، وأبي الطيب اللغوي (ت ٣٥١ هـ) على اسم والده: هرمز، ثم عدم تجاوز أبي الفرج (ت ٣٥٦ هـ)، ذكرَ والده ميسرة، وتأكيده في رواية أخرى نقلاً عن الأصمعي أن المسبي هو أبوه: «كان أبي...»، وهذا ما وجدناه أيضاً في رواية ابن النديم الذي قال:

«حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد، وكان سابور يكنى أبا ليلى، من سبي الديلم، سباه (ابن) عروة بن زيد الخيل».

فالمسبي على هذا، هو والد حماد. أما الأسماء الأخرى، فلعلها متداخلة، ولعل سابور أباه، في رواية ابن النديم، هو سابور جده عند ابن خلكان، ولعله هو المبارك وعبيد عنده وعند غيره، أو لعل هذه التسميات تسميات استجدت على سلسلة نسبه بعد أن دخل في الإسلام.

ولا بد أن نضع في الحسبان، أن هناك حماداً آخر، يلتبس اسمه باسم حماد، حتى يغدو من الصعب التفريق بينهما. يقول الجاحظ:

«حماد بن سابور، يهجو حماد بن أبي ليلى الراوية»[1] وليس في أيدينا ما يحل هذا اللبس، فقد رأينا حماداً صاحبنا، مرة: حماد بن سابور، ومرة أخرى: حماد بن أبي ليلى.

ومع كل، فنسب حماد عند ابن قتيبة ثنائي هو:

---

(١) البرصان والعرجان، ص ص ٣٠٠ـ٣٠١.

حماد بن هرمز

وعند أبي الفرج ثنائي أيضاً، وهو:

حماد بن ميسرة

أما عند ابن خلكان، فثلاثي وهو:

حماد بـن أبي مسيرة بن ليلى سابور

وهو رباعي عند ابن النديم:

حماد بن سابور بن المبارك بن عبيد

وعند ياقوت:

حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد

وعند ابن خلكان كذلك:

حماد بن ميسرة بن المبارك بن عبيد

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة وأبا الطيب اللغوي، يتفقان على أن مكنف بن زيد الخيل هو الذي سباه، فإن رواية ابن النديم التي تجعل السبي يقع من ابن عروة بن زيد الخيل، أقرب إلى الترجيح. حقاً عاش مكنف إلى ما بعد سنة ٢٢ هـ/ ٦٤٣ م، وكان صحابياً شهد حرب الردة مع خالد بن الوليد[١]، ولكن رواية المبرد (ت ٢٨٥ هـ)، تجعله ألصق بليلى بنت عروة بن زيد الخيل[١]، وقد وقع ابن النديم في خطأ عندما جعل ابن عروة، هو الذي وهب والد حماد إلى ليلى، في حين أن ذلك هو عروة بن

---

(١) الزركلي، الأعلام، جـ ٨، جـ ٢١٣.
(٢) الكامل، جـ ٢، ص ص ٢٠١ ـ ٢٠١.

زيد الخيل، وهو من روى عنه حماد، وقد شهد القادسية[1].

ومهما يكن، فأصل حماد من بلاد الديلم، التي تقع خارج حدود إقليم بلاد فارس، الذي يقع على بحر الهند والخليج العربي، بين البصرة والأهواز وكرمان[2].

ولهذا فلا عبرة بما قاله الطاهر مكي من أنه: «**من أصل فارسي**»[3]، ثم من أين علم الطاهر مكي أنه: «**ينتمي إلى أسرة محاربة من الديلم**»[4]، وما سُبِي والد حماد إلا لأن بلاده فتحت حرباً؛ وإن كان أبوه شارك في الحرب، فهذا لا يعني أن الأسرة كلها محاربة، ومعنى «**محاربة**»، ذات قيمة في الترتيب الطبقي الاجتماعي في ذلك الزمان وفي ذلك المجتمع الأجنبي بوجه خاص.

ب ــ ميلاده:

رأينا فيما سبق أن المسبي هو والد حماد، وأنه أمضى زمناً طويلاً

---

(١) ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ص ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) انظر الدراسة القيمة التي قدمها طه الحاجري عن أبي عبيدة. مجلة الكتاب المصري، ص ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨.
وانظر دراسة غير منشورة عن حماد، محفوظة بدار الكتب المصرية: عبد الحكيم مصطفى، «حماد الراوية» (١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م) رقم ٢٥٣/ ١٩٨١، الرقم الخاص ٨١٢٠٦. ومع أن هذا الكتاب البالغ ١٤٥ صفحة، مخصص لحماد، فإن ما يتعلق فيه به هو من ص ص ١١٦ ـ ١٤٢، والباقي حديث عام مكرور عن قضية الانتحال. بل إن تلك الصفحات نفسها تعد إعادة لما تداولته الأقلام عن حماد، وفي الدراسة من موافقة المأثور شيء كثير، مثل موافقته للتهم الموجهة إليه ص ص ٣٦ ـ ٣٧، وأجملها رأيه ص ١٣٥، وعلى العموم، فالكتاب نموذج لكتب المحاضرات «الجامعية» المطبوعة.

(٣) مصادر الأدب، ص ٢٤.

(٤) المرجع نفسه.
ويبدو أن الديالمة كانوا محاربين أشداء ويكونون فرقة قوية كبيرة في الجيش الفارسي الذي حارب في القادسية ضد المسلمين، واشترك فيها عروة بن زيد الخيل. انظر أبيات عروة، في ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ص ص ٧٤ ـ ٧٥.

في خدمة ليلى بنت عروة بن زيد الخيل منذ أوائل الفتح الإسلامي في أواخر العقد الثاني من القرن الأول الهجري. وهناك رأيان حول ولادة حماد، **فابن النديم (ت ٣٨٥ هـ)، يرى أنه ولد سنة خمس وسبعين من الهجرة**[١]، **أما ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، فيجعلها سنة خمس وتسعين من الهجرة**[٢].

ومن الملاحظ أن حماداً كان راوية يُعتد به في عهد خالد القسري[٣] (١٠٥ هـ ـ ١٢٠ هـ)، والظاهر أن هناك تصحيفاً وقع في وفيات الأعيان، فبدلاً من (وسبعين)، صارت عنده (وتسعين)، وبهذا ترتد سنوات ميلاده لتقترب من التاريخ الذي حدده ابن النديم، أي سنة ٧٥ هـ. ويتناسب هذا مع ما مر من أن والد حماد أمضى خمسين سنة، بزيادة هذه السنين الخمسين على أواخر العقد الثاني من القرن للهجرة.

حـ ـ سنه:

قلنا تواً أن سنوات ميلاده تقترب من تحديد ابن النديم، أي إنها لا تتطابق معها، فعلى الرغم من أن ابن النديم قدَّم تاريخاً لميلاده، يمكن أن يؤخذ به، فإنه يبدو تاريخاً غير دقيق، ويخضع لبعض الاحتمالات، إذا ما رحنا نفحص بعض الروايات التي صاحبت حياته، فمن ذلك:

١ ـ روى أبو الفرج أنه اجتمع بزياد بن أبيه، فأنشده، يقول:

«دخلت على زياد، فقال لي: «أنشدني...»[٤].

---

(١) الفهرست، ص ١٠٤.
(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٩.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٢، ص ٢٠٩.
(٤) الأغاني، ص ٦، ص ٨٨.

وقد تولى زياد البصرة والكوفة وسائر العراق من سنة ٤٤ هـ إلى وفاته سنة ٥٣ هـ[١].

٢ ــ ذكرت إحدى مخطوطات وفيات الأعيان، أنه اجتمع بعبد الملك ابن مروان (ت ٦٩ هـ)[٢].

ويلغي هذان الخبران تماماً ذلك التحديد الذي حدده ابن النديم لسنة ميلاده، بل إنه يبتعد عن ذلك التأريخ (٧٥ هـ)، بمسافة زمنية إلى الوراء، تصل إلى عشرين سنة تقريباً. ومع ذلك فسنتمسك بتحديد ابن النديم[٣].

وتتوالى بعد ذلك الإشارات على تأكيد تقدم عمره في هذا العصر بالذات، فنجد:

١ ــ روى ابن خلكان عن حماد قوله:

«كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته، وكان أخوه هشام يجفوني لذلك، فلما مات يزيد، وتولى هشام... فإذا شرطيان قد وقفا علي وقالا: يا حماد، أجب الأمير يوسف بن عمر الثقي...»[٤].

ثم علق ابن خلكان على ورود اسم يوسف بن عمر، فقال:

«وما يمكن أن تكون هذه الواقعة مع يوسف بن عمر الثقفي، لأنه لم يكن والياً بالعراق في التاريخ المذكور، بل كان متوليه خالد بن عبد الله القسري»[٥].

---

(١) الزركلي، الأعلام، جـ ٣، ص ٨٩.

(٢) جـ ٢، حاشية ص ٢٠٦.

(٣) انظر الاضطراب في الرواية التي تحكي عن قصة لقائه بزياد بن أبيه في: المرزباني، الموشح، ص ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٤) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

ولخبر ابن خلكان وملاحظته وجهان ذوا قيمة:

الأول:

أن حماداً أدرك ولاية يزيد بن عبد الملك (١٠١ هـ ـ ١٠٥ هـ).

الثاني:

أن الأمير المقصود هنا، ليس هو يوسف بن عمر الثقفي، وإنما هو خالد بن عبد الله القسري، الذي قُتِل على يد يوسف بن عمر، والي العراق وخراسان (١٢٠ هـ ـ ١٢٦ هـ). في عهد هشام[١].

ويدل هذا على تأكيد اشتهار صيت حماد في خلافة يزيد بن عبد الملك، وهذا الخبر هو عين الخبر الذي سبق أن أورده أبو الفرج[٢]، مما يثبت اتصال حماد بيزيد بن الوليد حقيقة.

وهناك خبران آخران يدلان دلالة قاطعة على حقيقة ذلك الاتصال:

أحدهما:

أنه صَنَع، فيما قيل، أبياتاً لخالد بن عبد الله القسري[٣].

والآخر:

أنه اتصل ببلال بن أبي بردة وروى له شعراً[٤]، وبلال كان عامل خالد بن عبد الله القسري على البصرة، وقتل أيضاً على يد يوسف بن عمر، عند مقدمه لولاية العراق سنة ١٢١ هـ[٥].

---

(١) الزركلي، الأعلام، جـ ٩، ص ٣٢٠. وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٧، ص ص ١٠١ ـ ١١٢.

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٢.

(٣) الأغاني، جـ ١٤، ص ١٥١.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٨٤.

(٥) ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ ٧، جـ ١٠٦.

فإذا حسبنا عمر حماد في هذا الزمن، فإنه يكون قد اقترب من الخمسين سنة، وفق مقولة ابن النديم (أي سنة ٧٥ هـ)[١]، (أو يزيد على ذلك كثيراً، أي يقرب من السبعين سنة، مقارنة بلقائه زياد بن أبيه).

ولعل مما يشجع على تجاوز ذلك، أن مروان بن أبي حفصة، يتحدث عن لقائه حماداً في عهد الوليد بن يزيد (١٢٥ هـ ـ ١٢٦ هـ)، فيصفه بالشيخ، يقول:

«فأقبل عليّ الشيخ، وقال: يا ابن أخي»[٢]

وفي عبارة حماد معنى يدعم هذه الصفة، فقوله: «يا ابن أخي»، يجعل من مروان بن أبي حفصة (١٠٥ هـ ـ ١٨٢ هـ)[٣]، أصغر منه سناً ويجعل أبا حفصة والد مروان، هو الذي يساويه زمنياً. وتأتي الصفة: «**الشيخ**»، لتعود بنا أدراجاً إلى مرحلة أسبق، قد تتفق مع تحديد ابن النديم لميلاده، أي سنة (٧٥ هـ).

ولا يقصد مروان بالشيخ هنا احترامه وتقديره، وإنما يقصد عمره الزمني حقيقة، لأنه يسخر منه فيتهمه باللحن، حتى إنه يندهش لمحادثته الوليد نفسه[٤].

ولا تقتصر الأدلة على تقدم سن حماد، على الناحية الحسابية فقط، بل إن هناك ما يحقق هذا من أقوال القدماء. فابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، يصفه بأنه:

«كان قديماً»[٥]

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٨٨.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦٩.
(٣) الزركلي، الأعلام، جـ ٨، ص ٩٥.
(٤) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٩.
(٥) المعارف، ص ٢٣٥.

وهكذا فعل أبو الطيب الذي قال عنه أيضاً:

«كان قديماً»

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فإن أبا عمرو بن العلاء (٦٩ هـ ـ ١٥٥ هـ)، كان يدرك هذه المكانة لحماد، فكان يقدمه على نفسه ويشيد بعلمه[١]. ولا يقتصر تقدير أبي عمرو لحماد على تلك المكانة، وإنما يضاف إليها عامل السن أيضاً، لتقاربهما سناً على الأقل.

ولقد عاصر حماد خليفتين آخَرين من الخلفاء الأمويين، عدا يزيد بن عبد الملك، إذ اتصل بهشام بن عبد الملك[٢] (١٠٥ هـ ـ ١٢٥ هـ)، وتوثقت صلته بالوليد بن يزيد بن عبد الملك[٣] (١٢٥ هـ ـ ١٢٦ هـ). وكان في عهدهما ذا باع طويلة في رواية الشعر، حتى امتلك في هذا العصر بالذات لقب «الراوية»[٤].

د ـ وفاته:

ظهر لنا أن حماداً كان «**قديماً**»، حسب وصف ابن قتيبة له، ومن ثم أصبح تأريخ وفاته نفسه مثار سؤال وعدم يقين. وربما ألقى هذا التساؤل وعدم اليقين بظلالهما حتى على سنتي وفاته: التي قال بها ابن خلكان، أي ١٥٥ هـ، والتي قال بها ابن النديم، أي ١٥٦ هـ. فعمره حسب تاريخ ميلاده عند ابن النديم، يكون حينذاك (١٥٦ ـ ٧٥= ٨١ سنة).

وإنه لمن المؤكد أن حماداً أدرك ميلاد الدولة العباسية، ولعل مما

---

(١) مراتب النحويين، ص ٧٣.
(٢) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ٣٧ وانظر، الأغاني، جـ ٦، ص ٧١.
(٣) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٣٦٨.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٦٩.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٦٨.

يرجح وجوده في أوائل الدولة العباسية، ما روي عن اجتماعه بأبي مسلم الخراساني، ومعاصرته للخليفة الثاني في الدولة العباسية، أبي جعفر المنصور (١٣٦ هـ/ ١٥٨ هـ)، وقول مروان بن أبي حفصة:

«ثم لم ألقه إلى زمان المسودة»[١]

ومع أن الدارسين المحدثين يذهبون إلى رفض امتداد عمره حتى سنة ١٦٤ هـ، وهي السنة التي بنى فيها المهدي قصره من لبن، في عيساباذ[٢]. كما يرفضون بقاءه إلى سنة ١٦٦ هـ، وهي السنة التي انتقل فيها إلى قصره المسمى بـ «قصر السلامة»، والمبني بالآجر[٣]، والتقى فيها بالمفضل[٤]، فإن الإشارات التاريخية تؤكد تجاوز السنتين اللتين حددهما ابن النديم وابن خلكان، فقد ذكر أبو الفرج قصة أخرى التقى فيها حماد بالمهدي الذي تولى الخلافة سنة ١٥٨ هـ، كما قال ابن النديم عنه:

«جالس المهدي»[٥].

وفي استعمال ابن النديم للفعل: **«جالس»**، ما يدل على التكرار والمعاودة، وقال كذلك رواية عنه:

«كنت أنشد المهدي»[٦].

وقال ابن خلكان:

«قيل إنه توفي في خلافة المهدي»[٧].

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٨.
(٢) الطبري، تاريخ.....، جـ ٨، ص ١٥٠.
(٣) المصدر نفسه، ص ص ١٥٠، ١٦٢.
(٤) انظر مثلاً: الأسد، مصادر...، ص ٤٤٣. جواد علي، المفصل، جـ ٩، ص ٣١٧.
(٥) الفهرست، ص ١٠٤.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٩.

وهذا يعني أن ابن النديم وابن خلكان نفساهما تشككا بما ذكراه من تحديد. وعلى هذا الأساس، فلا مانع من قبول ذلك اللقاء في حدود السنتين ١٦٤ هـ و ١٦٦ هـ، وقبل وفاة المهدي سنة ١٦٩ هـ.

ويدفعنا هذا التحديد إلى استبعاد لقاء حماد بهارون الرشيد، وهو اللقاء الذي يحل فيه هارون الرشيد محل المهدي في لقائه بحماد والمفضل الضبي[1].

هـ ــ الشعوبية:

ربط كثير من الكتاب المحدثين بين الشعوبية وحماد، على أساس أن حماداً رجل فارسي، والفرس حملوا لواء العداوة والبغضاء للعرب، واتخذوا من الروايات المتعددة عن الانتحال التي راجت حوله، والتعبيرات التي وصفه بها بعض العلماء، أحكاماً يقيسون عليها مفاهيمهم عن الشعوبية: وإذا كان البحث (العلمي) المعاصر يتحمل مسؤولية تأكيد تلك الأحكام وترويجها، فإن المقاييس التي اتكأوا عليها هي مقاييس في أساسها، غير أكيدة وليست قوية، كما سوف نرى في نقاشنا المقبل.

وإذا كان الجاحظ هو أبرز دعاة العروبة، في مقابل الشعوبية، فإن الجاحظ ذكر في كتبه حماداً ولم يقرنه بالشعوبية، ولم يقل عنه ما توهمه المحدثون فيه. ولذلك فإن ربطه بأحد تصرفات الشعوبية، الزندقة، جاء متأخراً، وذلك انطلاقاً من مواقف دينية أو سياسية خالصة، لا علاقة لها بارتباط الزندقة بالشعوبية، وهو أمر سنتحدث عنه في حينه.

ولا بد أن نلتفت بَعْدُ إلى أن الشعوبية مسمى اختص به الفرس، وهو وليد اصطدام حضاري وثقافي واجتماعي بالعرب، ولم يكن

---

(١) السيوطي، شرح شواهد المغني جـ ٢، ص ٧٥٤.

حمادٌ فارسياً، وإنما هو من سبي الديلم، أي خارج المنطقة الجغرافية الفارسية. ثم ما لنا نذهب بعيداً، ونحن نجد أبا عبيدة، الذي أسهم في تغذية الشعوبية، يتهم حماداً وينقل ما يُجرِّحه، ولا يتخذ أحد ذلك دليلاً على حب حماد للعرب أو العربية؟

ومهما يكن، فإن حماداً نشأ في بيت أحد العرب، ممن له أمجاده وتراثه العريقان، وأخص من ذلك، نشأ في بيت أدب وثقافة؛ فتغذى على ذلك، ولم تكن هذه التربية متأخرة، وإنما كانت تربية مبكرة قبل بروز الشعوبية في العصر العباسي. ولعل مما يرجح تعلق حماد بالعربية، وعدم مشاركته في الشعوبية، أن شعراء موالي كثيرين، حتى من الفرس، فيما عدا إسماعيل بن يسار، أحياناً، كانوا منضوين تحت لواء العروبة والإسلام، ولم يكونوا أعداء لأي منهما. وربما تساءلنا بعد ذلك: أيجوز أن يصحب حمادٌ بلالاً، وهو المعروف بتشدده وتقواه، ثم تغيب عنه حركة حماد، وهو يلاحظ عليه ملاحظات هي أحد دوافع المحدَثين لاتهامه بالشعوبية؟

ولو أغفلنا الكثرة الكثيرة من الإنتاج الأدبي الذي يتناول هذا الزعم، فإنه قد يكون من المجدي أن نستشهد بقولين، هما في الحقيقة تكرار لما هو متداول عن حماد:

الأول:

يقول إبراهيم أبو خشب، وهو يتحدث عن ظاهرة الانتحال:

«وفارس هذا الميدان هو حماد الراوية لأنه بذَّ جميع الرواة عرباً وموالي... وكان ـ لبصره بالشعر ـ أقدر من غيره على الوضع والانتحال لأغراض شخصية أو شعوبية»[1].

---

(١) تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ص ٧٢.

الثاني:

يقول حسين عطوان عن الظاهرة نفسها، وهو يتحدث عن هؤلاء الموالي بشكل عام:

> **«عبثوا بالشعر الجاهلي عبثاً شديداً، سواء بنسبة الشعر إلى غير قائله، أو بوضع الأشعار وإضافتها إلى تراث الجاهليين، حتى لا يكون للعرب أدب موثوق به، يطمئن الناشئة إليه، ويكبون عليه. وعرف منهم بذلك عديدون أشهرهم حماد الراوية، الذي جرحه علماء الكوفة والبصرة واتهموه بصنع الشعر وإفساد التراث...»**[1].

وهذا كلام ألقي على عواهنه جزافاً، ولم يتأسس على حقائق بينة جلية، وإنما هو قول شاع وذاع، حتى لم يعد منه مفر، بعد أن أغمضت الأعين عن واقع مستتر، سنتبينه في كل سطر من سطور هذا الكتاب.

---

(١) الشعراء من مخضرمي الدولتين، ص ٢٤٩.

الفصل الثاني
التكوين العقلي والنفسي لشخصيته

أ ـ الذاكرة:

ليس أمراً مبالغاً فيه أن يدَّعي المرء أن حماداً أعجوبة عصره، وأحدوثة زمانه، فكل القرائن تشير إلى أنه ليس رجلاً عادياً، بل إنه رجل امتلك قدرة خارقة على الحفظ والاستظهار، حتى أذهل معاصريه، فأحاطت به هالة من الإعجاب والتقدير، دفعت بالخلفاء والأمراء، في إبّان نشاط ذاكرته، إلى استحضاره والاستماع إلى إنشاده، حتى إنهم في أسوأ الحالات معه ـ كموقف بلال بن أبي بردة من إنشاده أبياتاً للحطيئة في مديح أبي موسى الأشعري، وهو ما سنتناوله في حينه ـ كانوا لا يجدون بداً من مواصلة الاستماع إليه، والإصغاء إلى روايته.

حقاً، كان حماد ممن يمتلك ذاكرة عجيبة *Phenomenal Memory* *Phantastic Memory/*، ذات امتيازات على التقاط الأصوات المثيرة إلى حد بعيد *Prodigious mnemonic feats*؛ وحتى لا يبدو هذا القول تحيزاً نحو حماد، أو مسايرة لما هو شائع عن أمثاله من المحترفين في كل الآداب العالمية، نستشهد هنا بإحدى الحالات، التي لا نعدم أمثالها كثيراً في الأدب العربي؛ إنها قصة العالم البصري، الأصمعي: ذلك أنه اجتمع هو ومعمر بن المثنى وأبو عبيدة، وعدد آخر من أهل الأدب في حضرة الحسن بن سهل لما قدم العراق، وفي أثناء الجلسة، راح الحسن ينظر في

خمسين رقعة بين يديه في قضاء حاجات الناس، ويوقع عليها، وبعد ذلك، أخذ الجلساء في ذكر الحُفّاظ، فقال أبو عبيدة للأمير، وهو يعني الأصمعي: «ما قرأ كتاباً قط، فاحتاج إلى أن يعود فيه، ولا دخل قلبه شيء فخرج منه». فالتفت الأصمعي، وقال للأمير: «الأمر في ذلك على ما حكى، وأنا أُقَرِّب عليه. قد نظر الأمير فيما نظر من الرقاع، وأنا أعيد ما فيها، وما وقّع به الأمير رقعة رقعة، على توالي الرقاع». وقد برهن الأصمعي للأمير على ذلك، ذاكراً ما كان في الرقعة واسم صاحبها، حتى سرد نيفاً وأربعين رقعة، وكان سيتمها لولا أن الأمير أوقفه[1].

ثم مالنا نذهب بعيداً وقد كان من أسس الرواية الصحيحة المعتمدة، تميز صاحبها بالحفظ والأخذ مشافهة، وهو ما ألح على توضيحه ابن سلام، حين شن حملة على من تكون بضاعته في الرواية محصورة في الصحف، أو يجعلها مستنده الرئيس[2].

وسوف نناقش فيما بعد أمثلة من روايات حماد التي حاز فيها على إعجاب غيره واهتماماتهم، حتى ذهبوا في تفسيرها مذاهب شتى، ويبقى بعد هذا أن هؤلاء كانوا يعترفون له بالتفوق في الحفظ حتى قال فيه الطرماح مقارناً إياه بغيره:

«كان . . . أحفظهم»[3].

ب ــ الذكاء:

يصعب الفصل بين الذاكرة ذات المستوى الفائق والذكاء، فالرواة

---

(١) القفطي، إنباه الرواة، جـ ١، ص ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) طبقات، ص ٦.
وانظر الفصل الذي كتبه أستاذنا مصطفى حسين، عن «الحفظ» في كتابه، رواية الشعر العربي، ص ص ٣٧ ـ ٤٨.

(٣) الأغاني، جـ ٦، ص ٩٠.

العرب الذين عرفهم الأدب العربي ـ من غير أن نذكر العلوم الأخرى، كالحديث والفقه واللغة ـ كانوا يتمتعون بذكاء حاد يصل حد العبقرية، إن لم يكنها؛ فهم لا يختلفون في ذلك عن أولئك الرواة العالميين، من أمثال رواة الملحمة الهومرية، والرواة المتجولين في بلاد الغال، والرواة المغنين السلافيين والرواة الآيسلنديين القدامى... إلخ[1]. وربما كان الذكاء في حالة حماد، أبرز من غيره في توظيفه لخدمة مهنته، فقد تفرغ الرجل كلية للرواية، فتوجه ذكاؤه نحو تنميتها والمحافظة على استمرار عملها وصقلها بتركيز ودأب، فلم يكن منشغلاً إلا بمادته الشعرية التي يسعى للحصول على أكبر كم منها.

وحيث إننا سنصادف جوانب متعددة تثبت ذلك، فإنه مما يكفينا هنا أن نستشهد بموقف استغل فيه حماد ذكاءه للخروج من مأزق أعاق غيره، وهو في هذا إنما يلجأ إلى ذخيرته الشعرية، التي هي سلاحه، يقول أبو الفرج:

«قدم حماد الراوية على التفئة بالشأم، فشكوا ذلك إليه، وقالوا: والله، لقد ذهب طريح بأمير المؤمنين، فما نالنا منه ليل ولا نهار، فقال حماد: أبغوني من ينشد الأمير بيتاً من شعر، فأُسقِط منزلته، فطلبوا إلى الخصي، الذي كان يقوم على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم، على أن ينشدهما أمير المؤمنين في خلوة، فإذا سأله: من قول من ذا؟ قال: قول طريح، فأجابهم الخصي إلى ذلك، وعلموه البيتين، فلما كان ذات يوم، دخل طريح على الوليد، وفتح الباب، وأذن للناس، فجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقي طريح مع الوليد، وهو ولي عهد، ثم دعا بغذائه، فتغذيا جميعاً، ثم إن طريحاً خرج وركب إلى منزله، وترك الوليد في مجلسه ليس معه أحد، فاستلقى على فراشه، واغتنم الخصي خلوته، فاندفع ينشد:

سِيرِي رِكَابِي إِلَى مَنْ تَسْعَدِينَ بِهِ ... فَقَدْ أَقَمْتِ بِدَارِ الْهُونِ مَا صَلُحَا

---

(١) انظر عن هؤلاء *Zwettler, the Oral Tradition, P. 18*.

سِيـرِي إِلَـى سَيِّـدٍ سَمْـحٍ خَـلاَئِقُـهُ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ قَرْمٍ يَحْمِلُ الْمِدَحَا[1]

ويبرهن هذا على صدق مقولة الطرماح فيه مرة أخرى بأنه:

«كان أذكى الناس»[2].

ومع ذلك. فعلى الرغم من هذا المستوى الرفيع من حدة الذكاء وقوة الذاكرة، كما يثبته التجارب والتاريخ عنه، وعند أمثاله. فإن خلفا الأحمر يقول عنه:

«كان فيه حمق»[3].

فهل يعني خلف بالحماقة: السلوك، أم القدرات الذهنية؟ فلو كان ما يعنيه هو السلوك، فإنه قد يتوجه إلى ما سيأتي عن سلوكه، وهو مسألة أخلاقية يرجع الحكم فيها إلى نظرة الشخص ومواقفه، أما إذا كان ما يقصده، هو نوع من سوء التدبير أو التفكير، فإنه أمر ـ يبدو ـ غير صحيح.

وربما أوضح لنا قول خلف التالي، جانباً آخر من جوانب ذلك الحكم.

يقول خلف:

«كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب، وأعطيه المنحول، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعاره»[4].

---

(١) الأغاني، جـ ٤، ص ٣١٤.

التفئة: الحين والزمان. الدسيعة: العطية، والجفنة الواسعة والمائدة الكريمة. كان الوليد في أواخر حكم هشام معتزلاً في الأزرق على ماء له بالأردن. انظر ابن الأثير، الكامل، جـ ٥، ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٩٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٨٨.

(٤) المصدر نفسه.

فهل نستشف من ذلك أن حماداً كان غبياً، وهل يفسر هذا ما وصفه به، أي «أحمق»؟ لقد قالت سنية أحمد محمد عن هذه الحادثة:

«الحقيقة أن النص يشكل طعناً في خلف، قبل أن يكون طعناً في حماد، فكيف يأخذ عن أستاذ حقت عليه الغفلة والغباء؟».

ثم تواصل الباحثة رأيها فتقول:

«إن ما في هذا النص مشكوك فيه ومما يضاعف شكنا وجود نص مقارب له مروي عن أبي زيد يقول فيه: «حدثني خلف الأحمر، قال: أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر، فبخلوا علي به، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ الصحيح، ثم مرضت، فقلت لهم: ويلكم!، أنا تائب إلى الله هذا الشعر لي، فلم يقبلوا مني، فبقي منسوباً إلى العرب لهذا السبب».

ثم تنتهي إلى النتيجة التالية، فتقول:

«وهذا النص يكاد أن يكون النص الذي سبق أن أشرنا إليه، سوى أنه وسع دائرة الأمر، فجعله يعم الكوفيين جميعاً، ودواعي الشك فيه هي الغالبة، يتضح هذا المعنى من النص نفسه، حيث يناقض بعضه بعضاً، فتارة يبخل الكوفيون على خلف بالرواية، ثم يذكر أخذه للرواية الصحيحة منهم وإعطاءهم الرواية المنحولة، فكيف يحكم عليهم بالثقة دونما قصد وعلى نفسه بالوضع إن كان هذا رأيه حقاً؟»[1].

ورأي سنية ذو قيمة في إبطال تهمة الحماقة، أي الغفلة والغباء، كما فهمتها، ولعل ما أثارته من شكوك حول الخبر، كان دون إضافة الطعن في أي من الرجلين. وقد أبدى جواد علي، رأياً جديراً بالقبول حين قال:

«ويصعب في الواقع تصديق هذه الرواية المنسوبة إلى خلف الأحمر، فلم يكن حماد بإجماع المنافسين له على شيء من الغفلة والحمق،

---

(١) النقد اللغوي في القرن الثاني، ص ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

حتى نصدق ما ورد في هذا الخبر الآحاد، الذي هو خبر من أخبار رواة البصرة، بل نرى من الأخبار الواردة عنهم العكس، نرى فيه الفطنة والخبث إلى آخر أيامه. ثم إنه كان أقدم وأشهر وأعرف وأحفظ من خلف الأحمر، وهو في معرفة الشعر وتمييزه أمرس من صاحبه خلف، فلا يعقل فوات ما نحله (خلف) القدماء على حماد. وقد كان الرواة أنفسهم يتعجبون من مقدرة حماد على التمييز بين الصحيح والفاسد من الشعر، وعلى إحاطته بأساليب الجاهليين في نظم القريض، وعلى إتقانه تلك الأساليب، حتى صار من الصعب على عشاق الشعر التمييز بين ما كان يصنعه حماد على ألسنة الشعراء الجاهليين وبين ما كان من نظمهم حقاً. ولهذه الأسباب يصعب التصديق بهذا الخبر، ورأيي أنه من وضع أهل البصرة، وضعوه على حماد، كرهاً له وللكوفيين. ورواته هم من البصريين»[1].

فإذا ما قبلنا حقيقة هذا الخبر، واستبعدنا الطعن فيه، أو التزيد من الآخرين (لا خلفاً وحده)، فإنه لا مناص من العودة إلى سن الرجلين للحكم على واقع هذا الخبر، فخلف الأحمر توفي ١٨٥ هـ، وحماد توفي مبكراً في أوائل الدولة العباسية، كما رأينا. وكان خلف في عنفوان شبابه وحيويته، وكان حماد شيخاً أثَّرت فيه السنون والأيام، فكان يَقبل ما يرويه خلف، ويعطيه ما لديه. ولا بد هنا أن نضع حداً بيناً لتفسير مفهوم «**المنحول**»، فهو لا يعني الموضوع، وإنما يعني ذلك الشعر الذي قبله أهل الكوفة، واحتاط في قبوله ابن سلام، لأن ابن سلام يصف أهل الكوفة بأنهم:

«**يروون أكثر مما نروي**»[2].

فالمنحول الذي قبله خلف، هو ذلك الشعر الذي لا يخضع لمقاييس

---

(١) المفصل، جـ ٩، ص ص ٣٢٤ـ٣٢٥ وانظر، الأسد، مصادر، ص ص ٤٥٠.
(٢) طبقات، ص ١٢٣.

مدرسة البصرة، ولو كان خلف يعني بالمنحول ما راج أخيراً عن هذه الكلمة، لقال: الموضوع، أو المصنوع، أو كما سماه ابن سلام أيضاً: «**المفتعل**»[1]، والنوع الأول: أي «المنحول»، يتفق مع ما ترويه مدرسة الكوفة، حتى قال ابن سلام عن مرويات المفضل الضبي لشعر الشاعر القديم الأسود بن يعفر:

«**ذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول: له ثلاثون ومئة قصيدة، ونحن لا نعرف له ذلك، ولا قريباً منه**»[2].

وهكذا يفسر لنا هذا الفهم صفة الحمق التي ألصقها به خلف ـ على افتراض صحة ذلك الخبر ـ أي إن حماداً ومدرسته الكوفية، يفتقدون الجانب التحليلي في رواية الشعر، ولا يتناولونه بالنقد والمعاينة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

الفصل الثالث

المؤثرات العامة في سلوكه

أ ـ اللصوصية:

اتضح لنا فيما مضى من حديث عن مراحل حياة حماد، أنه رجل ولد في زمن مبكر، أي قديم، كما قيل عن ذلك، إذ رأيناه قادراً على إنشاد الشعر في مطلع القرن الثاني، ويجالس الملوك والأمراء والشعراء، ويتأسس على هذا، ذلك الخبر الذي ارتبط بصباه، والذي يقول:

«كان حماد الراوية في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص، فنقب ليلة على رجل فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد، فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الأدب، والشعر، وأيام الناس، ولغات العرب بعد ذلك، وترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ»[1].

ولكن أنى للمرء أن يقبل هذا الخبر، مهما كانت قوة صدقه؟ فلو أن حماداً ولد في أوائل العصر العباسي أو أواخر العصر الأموي، لترجحت كفة صدق الخبر، أمّا وقد ولد في زمن المحافظة الشديدة والتقاليد الثابتة، فكيف وقع ذلك؟ ثم إنه عاش، كما تبينا مع ليلى بنت عروة، وكان يروي لها الشعر، أي إنه اضطلع بمهمة الرواية وحب الأدب قبل أن يخرج من

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٣.

ولاء آل زيد الخيل، لا سيما أن سياق الخبر، يجعله فتى راشداً يتصرف تصرف اللصوص المحترفين، وهو ما تدل عليه عبارات الخبر نفسه، مثل: «**صحب الصعاليك واللصوص**»، و«**نقب**»، و«**قرأه**».

إن هذا الخبر يعطينا، من ناحية، صورة عامة عن نشأة حماد وتكوينه الفكري والسلوكي، ففي نفسه رغبة داخلية ملحة لطلب العلم والأدب، إذ دفعه إحساسه الداخلي ذاك إلى الإطلاع على الكِتاب والنظر فيه، ولم يصرفه حب المال عن حب الأدب. وتدل عبارة: «**فاستحلاه**»، على اللذة التي شعر بها عندما وقع في يده مثل ذلك الكتاب، كما تدل عبارة «**وتحفظه**»، على استعداده الذاتي للحفظ، وأهم من هذا كله، أنها تكشف عن أن الحفظ نفسه لم يكن أمراً سهلاً، بل كان يستدعي ـ كما هو في هذه الحالة ـ المراجعة والاستذكار المستمرين، وهو ما تؤكده عبارة: «**تحفّظه**»، أي المداومة والمثابرة، ومن ثم كانت النتيجة هي طلب الأدب، لأن ذلك هو الشيء الطبيعي والمتوقع.

أما من ناحية أخرى، فإن الخبر يكشف عن رغبة حماد في الانعتاق من القيود الاجتماعية، واللوازم الأخلاقية، وهو ما حققه فيما بعد، حين استقل بذاته، وراح يكوّن علاقاته وصداقاته الخاصة. ولهذا أكدت الخبر عبارة مهمة هنا، وهي: «**يتشطر، وصحب الصعاليك واللصوص**». فمن خصائص «**الشطارة**»، وهي من المفردات المتأخرة، حيث كانت «**الفتوة**»، أسبق منها ـ أن يتصف الشاطر بالظرف والذكاء والاستعداد للتخلص من المواقف المحرجة، أما الصعاليك، فإن أعم صفة لهم، أنهم كانوا سيِّء الحال، فقراء، وسنلاحظ بعد قليل أن هذه الحالة الأخيرة، كانت حالته في إبّان حياته في الدولة العباسية، مما يجعل الخبر وليد عصر متأخر.

وهكذا يتضح أن تهمة اللصوصية، إنما جاءت لتفسير بلوغه ذلك المبلغ في العلم والمعرفة الأدبية، لأن الكيفية التي حصل فيها على هذا

العلم، أدهشت غيره، وهو المولى «الأعجمي»، فراحوا يطلبون لها تفسيراً، فلم يعثروا عليه إلا بإسقاط الحاضر على الماضي.

وإضافة إلى هذا، فإن مسألة وجود كتب شعرية في ذلك الزمان الذي كان فيه حماد يافعاً، هي مسألة فيها نظر، وإنما جاءت في سياق الهدف من إيراد الخبر.

ولا بد أن سيماء الذكاء وقوة الذاكرة بدت عليه من مراحله الأولى؛ وحيث كان في بيت شعر وأدب، فلا بد أنه كان يستمع إلى رواية الشعر منذ طفولته، ثم تنامى الموقف معه تدريجياً، ولا شك أن هذه المحاولات خلقت لديه أذناً حساسة مرهفة للإيقاع واللغة، حتى أصبح قادراً على تمييز الألفاظ والأصوات، ولولا أنه وجد في نفسه الجرأة على النشيد، لما بقي له ذلك المحفوظ، ثم لولا أنه تعهد نفسه بالمراجعة والمثابرة على الاستعادة والنشيد، بل التعلم من جديد، لخمدت جذوة ذاكرته[1].

ويبقى بعد ذلك أن من عادة التفكير الشعبي أن يحاول تفسير الأعمال الخارقة أو الأقوال الفذة في كثير من الحكايات والقصص الخاصة بالأبطال والزعماء والعظماء والمفكرين؛ مما دفع إلى القول إن حماداً كان لصاً وإنه نقب جداراً ذات يوم... إلخ، وما هذا إلا لتفسير ظهور حماد المفاجيء على مسرح الأدب العربي، واحتلاله ذلك المركز المرموق، حيث خمل ذكر كثيرين من أمثاله من الرواة، وارتفع شأنه أيما ارتفاع، حتى إنه جاء فاصلة بين مرحلتين في الرواية الشفوية: مرحلة الراوي المتخصص برواية شعر شاعر معين، ومرحلة الراوي الذي يجمع شعراً كثيراً لشعراء متعددين؛ لا سيما أنه جاء خروجاً حتى على الأعراف

---

(١) انظر عن إبقاء المحفوظ: *Hunter, Memory. PP. 39 - 40*.

والمواضعات في ذلك العصر (أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري)، فهو غير عربي الأصل، وهو غير بدوي أعرابي.

ويمكن أن نفترض بدء نشاط ذاكرة حماد في سن السادسة أو السابعة، وهي السن التي تتهيأ فيها الذاكرة الإنسانية للعمل المستمر. أما القول إنه وجد ما شجعه على الحفظ، فعلاوة على أنه يؤخر نشاط الذاكرة إلى سن أخرى، قد تكون سن المراهقة، فإنه ينتزع منه الحافز النفسي المتولد ذاتياً لديه نتيجة لوجوده في بيت أدب وثقافة. فالاستعداد النفسي والفكري للأدب، هو الذي كان وراء ذلك المحفوظ المبكر.

لقد تلقى حماد محفوظه بشكل طبيعي، وأخذ يتمثله تلقائياً وهو يتحسس جمالياته ويستمتع بصياغاته، وهذا ما جعله يمر بمراحل تدريجية، أي إن استيعابه كان خلال المتابعة الحرة *Process*.

وإضافة إلى ذلك، فإن هناك عاملاً خطيراً في تنشئة حماد هذه النشأة، فإذا كان معروفاً بأنه الراوية، الذي كان ينشد في المحافل الرسمية، فيستمتع ذوو الأذواق بإنشاده، فلا بد أنه اكتسب هذا المران منذ صغره فاستساغ معه الأصوات والأصداء الشعرية، وأصبح في سن مبكرة يألف الإصغاء إلى نفسه وهو ينشد الشعر، كما كان يحس بتأثير إنشاده على الأخرين، فتربى على ذلك الإنشاد والترديد *rehearsal* حتى صار ذلك جزءاً من حياته، فغلب عليه، وسمي الراوية، لأن هذا هو ديدنه واحترافه خاصة في وسط جماعي، ولقد دعمت الأبحاث المعاصرة هذه الحقيقة، فثبات المحفوظ الجاهلي في ذاكرته، إنما يعني أن تلقيها كان مبكراً[1].

ب ــ المجون:

إذا كانت تهمة اللصوصية، تهمة أصبحت من الأخبار التي يصعب

---

(١) انظر عن هذا: *Howe, Introduction PP. 40 - 42*.

تصديقها لقيام قرائن كثيرة على بطلانها، فإن تضافر الأدلة على اتهامه بالمجون، تثبت أنها كانت حقيقة عنده. وفي تعريف المجون يقول ابن منظور:

«المجون أن لا يبالي الإنسان بما صنع، أو الذي لا يبالي بما قال ولا بما قيل له»[1].

فمن اتهام حماد بالمجون قول الطرماح بن حكيم (ت ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م) له:

«أنت رجل ماجن»[2].

فتهمة المجون إذن، تهمة صاحبت سيرة حياته المعروفة، ولكن ما المجون، بالنسبة إليه؟ إن ما تعكسه أخباره المتعلقة بمجونه، تكاد تنحصر في إقباله بشغف وحب شديدين على شرب النبيذ. وعلى الانطلاق مع هواجس نفسه دون اكتراث، وهو المعنى المتضمّن في المجون، وعلى هذا، فالمجون عنده هو: شرب النبيذ والعبث.

حـ ـ شرب النبيذ:

يروي أبو الفرج، أنه عندما أرسل المنصور إلى حماد رسولاً ليعرف رأيه عن أشعر الشعراء، وجده ذلك الرسول:

«في حانة وهو عريان، يشرب نبيذاً من إجَّانة، وعلى سوأته دَستَجة»[3].

---

(١) اللسان، «مجن».

(٢) الأغاني، جـ٦، ص ٩١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٧٧.

الإجانة: آنية تغسل فيها الثياب. الدستجة: الإناء الكبير من الزجاج.

وفي خبر آخر عنه، يقول:

«استهدى من صديق له نبيذاً، فأهدى إليه دُسَيتِجَةَ نبيذ»[1].

فالخبران كلاهما متفقان على أنه مولع بشرب النبيذ مغرم به. وقد اختلف بعض علماء العراق حول شرب النبيذ أحلال هو أم حرام؟ وقد درس المرحوم جميل سعيد الموضوع مفصّلاً آراء الفقهاء حول شرب النبيذ[2].

ويكشف الخبر الأول هنا عن عدم تعرض السلطات العباسية لمثل هذه الأمور، فالمرسول مُمَثِّل الحاكم، وسيُبَلِّغ الحاكم بما رأى، وحماد نفسه لا يجد حرجاً في إظهار حاله على ما هو عليه، فهو مطمئن غير مرتاع من عقاب، وهذا الموقف متكرر في مواقف أخرى كما سنرى.

ولم يكن ذلك الرأي حول النبيذ في العصر العباسي، وإنما سبقه بزمان، حتى إن أنس بن زنيم الليثي يقول في موعظة له ونصح:

فَدَعْ عَنْكَ شَرَبَ الخَمْرِ وَارْجِعْ إِلَى الَّتِي ... بِهَا يَرْتَضِي أَهْلُ النَّبَاهَةِ وَالذِّكْرِ
عَلَيْكَ نَبِيذَ التَّمْرِ إِنْ كُنْتَ شَارِباً ... فَإِنَّ نَبِيذَ التَّمْرِ خَيْرٌ مِنَ الخَمْرِ
أَلَا إِنَّ شُرْبَ الخَمْرِ يُزْرِي بِذِي الحِجَى ... وَيَذْهَبُ بِالمَالِ التِّلَادِ وَبِالوَفْرِ
فَصَبْراً عَنِ الصَّهبَاءِ وَاعْلَمْ بِأَنَّنِي ... نَصِيحٌ وَأَنِّي قَدْ كَبِرْتُ عَنِ الزَّجْرِ[3]

ولعل هذا التسامح في شرب النبيذ هو الذي جَرَّأ حماداً وغيره على المجاهرة به وإعلانه، حتى إنه يجتمع نهاراً جهاراً مع أصحابه في بستان يغنون ويشربون، يقول أبو الفرج:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٢) تطور الخمريات.

(٣) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٤٧٥. وانظر جواد علي، المفصل، جـ ٩، ص ٣١٤. وانظر، خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٢١٩ ـ ٢٢١. هدارة، اتجاهات ص ص ٢٠٣ ـ ٢٨٠.

«**اجتمع حماد الراوية، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وحكم الوادي، يوماً على شراب لهم في بستان بالكوفة، وذلك في زمن الربيع، ودعوا جوهر المغنية، وهي التي يقول فيها مطيع:**

أَنْـتِ يَـا جَـوْهَـرُ عِنْـدِي جَـوْهَـرَهْ فِـي قِيَـاسِ الـدُّرَرِ المُشْتَهَـرَهْ

فشربوا تحت كرم معروش حتى سكروا...»[1].

وفي خبر آخر قال، وهو يتحدث عن عمار بن عمرو الملقب بذي كناز:

«**... كان هو وحماد الراوية، ومطيع بن إياس، يتنادمون ويجتمعون على شأنهم لا يفترقون**»[2].

فعامل الشراب قد جمع بين هذه المجموعة لتحقيق رغباتهم: «**على شأنهم**»، وفي الخبر الأول نجد: «**على شراب**»، وفي الخبر الثاني نجد: «**يتنادمون**» و«**فشربوا ـ حتى سكروا**». ومهما قيل عن آراء علماء العراق حول النبيذ، فالخبر الثاني يدل على أنه يؤدي إلى السكر، وفي الحديث الشريف: «ما أسكر كثيره فقليله حرام». فالنبيذ، يندرج أيضاً تحت مسمى الخمر، ومن هنا تحول ذلك المسمى فيما يتعلق بحماد، ليصبح خمراً حقيقة عند من جاء بعد ذلك، فقال المرزباني (ت ٣٨٤ هـ) في نور القبس نقلاً عن عبد الله بن جعفر:

«**كان حماد يعاقر الخمر**»[3].

فالنبيذ ههنا خمر، على حين كان حماد يشرب النبيذ، وهو الآن لا

---

(١) الأغاني، جـ ١٣، ص ٣٢٢.
(٢) المصدر نفسه جـ ٢٣، ص ص ٣٦٧ـ٣٦٨.
(٣) ص ٢٧١.

يشرب النبيذ، بل يعاقر الخمر، ومن ثم فهو محب للشرب مقبل على استهلاكه.

وفي هجاء فيه، قال أحد الشعراء:

أَلَـمْ تَـرَ حَمَّـاداً تَقَـدَّمَ بَطْنُـهُ وَأُخِّـرَ عَنْـهُ مَـا تُجِـنُّ المَـآزِرُ[1]

وفي هذا دلالة صريحة على كثرة تناوله الشراب (النبيذ في الأصل)، وهو الذي أدى إلى أن ينهدل بطنه ويتسع، حتى أدى إلى ظهوره بمظهر المتقوس، فأعلاه متقدم، وأسفله متأخر. وفي هجاء آخر فيه، قال أبو الغول مركزاً تركيزاً شديداً على عادته شرب النبيذ:

هَـدَلَـتْ مَشَـافِـرُهُ الـدِّنَـانُ فَـأَنْفُـهُ مِثْـلُ القَـدُومِ يَسُنُّهَـا الحَـدَّادُ
وَابْيَـضَّ مِـنْ شُـرْبِ المُـدَامَـةِ وَجْهُـهُ فَبَيَـاضُـهُ يَـوْمَ الحِسَـابِ سَـوَادُ[2]

وسواء أكان هذا في حماد الراوية أم حماد آخر[4]، كما سيأتي في حديث عنه، فإنه يثبت عدم انقطاعه عن الشراب حتى أثر في جسده تأثيراً بيناً.

إن السؤال المطروح هنا هو، متى وصل حماد إلى هذه الحالة، حالة **المجون** التي هي: «**أن لا يبالي الإنسان بما صنع**»، حتى يصل حد السكر، ويظهر كالعريان في حانة عامة؟ فلو أنه كان مستهتراً بالشراب إلى هذا الحد في عهد زياد بن أبيه، على افتراض إدراكه له، أو هشام بن عبد الملك، لأوقع عليه الحد دون ريب، وهذا ما لم يحدث. إذن، فلا بد أنه بدأ يظهر على هذه الحال في عهد الوليد بن يزيد ومَن جاء بعده، وقد كان الوليد بن يزيد نفسه مستهتراً بذلك، كما نرى من قصصه في اجتماعه بحماد، وكما هو معروف عنه.

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٨١.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.
(٣) ابن خلكان وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢١١.

بل إن هذا يقودنا إلى افتراض أن حماداً لم يُقْبِل على الشراب هذا الإقبال إلا بتشجيع من الوليد نفسه، حتى اعتاد على ذلك وتجَرَّأ على استساغته، لأن أخباره قبل أن يتصل بالوليد ذلك الاتصال الوثيق، كانت تظهره معقولاً في تصرفاته، ولم تتحدث المصادر عن مثل هذه التصرفات إلا بعد ذلك الاتصال.

ومع كل ذلك، فإنه لمن الراجح لدينا جداً أن هذه الصورة التي يقدمها الشعر لنا، صورة أخذت عنه في العصر العباسي، ولذلك سببان:

الأول:

أن هذه كانت هي الحالة الشائعة عنه وعن أمثاله في أوائل هذا العصر خاصة من أبناء الكوفة[1].

الثاني:

أنه أصبح يجد في الإدمان على الشراب، إن صح ذلك عنه، تعويضاً نفسياً للخسارة التي لحقت به اجتماعياً وأدبياً، جراء مقدم العباسيين، كما سوف نرى.

وعلى هذا، فإن حماداً كان في حقيقة الأمر ماجناً، أي يشرب النبيذ حباً له ورغبة فيه، قبل أن ينقضي العصر الأموي، وظل متماسكاً قبل أن يتقدم به العمر، وقبل أن تتغير الأوضاع فجأة من حوله؛ ثم انقلب مع زمانه، فصار مفضوح الحال مشتهر الأمر، وهو لا يزداد إلا لذة وانشراحاً، حتى وصل به الأمر إلى أن يصبح سكران لإفراطه في تناول النبيذ، الذي غدا مفعوله فيه كمفعول الخمر.

وإنه لمن المستغرب أن يقول الطاهر مكي عن حماد الراوية:

«كان مع حماد عجرد الشاعر، وحماد بن الزبرقان النحوي، يكوّنون

---

(١) خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٢١٤ ـ ٢٢٥.

في الكوفة ثالوثاً مزعجاً، يعيش حياة لاهية، ومنطلقة غير مسئولة، يتنادمون ويتعاشرون وكأنهم نفس واحدة. . وتثير حياتهم نقمة الطبقة المحافظة، وكثيراً ما كان يلقى بهم في السجن فلا يبرحونه إلا بعد شفاعة من كبير يمدحونه. . .»[1].

فعلاقة حماد لم تقتصر على هذين الاثنين، فهم كانوا أكثر من هذا، كما ذكر الطاهر نفسه بعد ذلك[2]، أما وجه الغرابة في هذا الكلام، فهو قوله: «**كثيراً ما يلقى بهم في السجن**»، فإن صدق هذا على غير حماد، فإنه فيما يتعلق بحماد غير صحيح على الإطلاق. فليس في أخباره أنه أودع السجن ذات مرة، أو أنه جر على نفسه عقوبة ما. وقد رأينا كيف أنه يستهتر بالشراب، دون أن يخشى أي أذى، وظهر في عبثه المزعوم في هذا العصر، في وضع مشابه.

ومما هو جدير بالذكر أن عدداً من العلماء المرموقين في التراث، وشابت سلوكهم شوائب، قد جرحوا تجريح حماد، فابن دريد مثلاً، وهو العالم الراوية اللغوي الكبير، كان غير منقطع عن شرب النبيذ إلى جانب حبه للطرب، وهكذا كان اليزيدي الذي اتهم بالشذوذ، ومن أمثالهم كثيرون، إلا أنهم سلموا على الأقل من نقمة العصر وسوء المنقلب.

د ــ العبث:

وجدنا في تعريف المجون أنه يعني عدم المبالاة وانعدام الحياء. وفي اجتماع مبكر لمروان بن أبي حفصة بحماد عند الوليد بن يزيد، قال مروان عنه بعد أن اتهمه باللحن واستخف به:

«**فتهانف الشيخ**»[3].

---

(١) مصادر الأدب، ص ٢٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٢٧.

والتهانف هو: الضحك في سخرية. فحماد لم ينفعل أو يُحبَط، وهو يواجَه في مجلس الخليفة بهذا الهجوم والتحدي، بل استقبل ذلك استقبالاً غير مبال به، وراح يضحك في سخرية من كلام مروان وتحديه، حتى لم يعد لذلك تأثير فيه ولا في جلسائه، وكأن مسألة كبيرة كمسألة اللحن، وهو الراوية ذو الشهرة، ليست ذات أهمية بالنسبة له، ويبدو من ذلك أنه ذو روح هازئة مرحة وخفيفة، ونفس غير متوترة أو مضطربة، حتى إنه لا يجد في النقد، مهما كان جارحاً، غضاضة أو تبرماً.

هذا إذا قبلنا تلك الأخبار على علاتها دون فحص أو تدقيق، فحماد كان مولعاً بشرب النبيذ حقاً، ولكن هل وصل به الأمر، مهما كانت الظروف، إلى التخلي تماماً عن سلوكه المعتدل في الماضي، ليهوي فجأة إلى هذا الحضيض الذي يصفه به خبر رسول المنصور؟ أليس في الخبر ما يدعو إلى التريث في قبوله، فهو يقول:

«في حانة وهو عريان، يشرب نبيذاً من إجانة، وعلى سوأته دستجة»:

فحماد هنا في مشرب، وهو عريان تماماً، حتى إن قوله: «**وعلى سوأته دستجة**»، جاءت لتجاري التساؤل عن وضع التعري التام هذا، لأن الدستجة وعاء.

وفي خبر ثان، مشابه تماماً لهذا، روى يحيىٰ بن سليم أن أبا جعفر المنصور بعثه إلى الكوفة ليسأل حماداً عن أشعر الناس، فإذا حماد عريان، وعلى سوأتيه شاهشفرم[1]. **والشاهشفرم: هو الريحان.**

وفي خبر ثالث يختصر تلك الحالات، يأتي فيقول إن المنصور طلب حماداً ببغداد، فلم يوجد، ووُجد هذه المرة في البصرة. يقول الرسول الذي لم يُذكر اسمه:

---

(١) العباسي، معاهد التنصيص، جـ ١، ص ١٩٧.

«فما رأيت رسالة أرفع، ولا حالة أوضع من تلك»[1].

وتجمع الأخبار الثلاثة تلك على تصوير حماد بالإباحية التامة، وعدم الحياء نهائياً، سواء أكان أمام الناس عامة، أم كان وحده.

ولو كانت مثل هذه الأخبار صحيحة، فلماذا لم نعثر عليها عندما استدعاه هشام بن عبد الملك أو الوليد بن يزيد؟ أليس من المحتمل جداً أن الخبر الثاني، بصياغاته المختلفة، جاء ليتوافق مع الأهواء السياسية في العصر العباسي، الذي كان حماد أحد المبعَدين عنها كما سنرى؟ ولعل مما يرجح هذا الاحتمال أن حماداً كان على العكس تماماً، أبعد من الظهور بهذا المظهر، والعباسيون يتربصون به وبأمثاله من بقايا الذكرى الأموية.

إذن، فحماد كان يشرب النبيذ، وكان يلهو بحرية قبل مقدم العباسيين، أما عندما جاء العباسيون، فهو أشد حذراً واحتراساً.

وفي ضوء تلك الأخبار التي تحاول أن تظهر حماداً كأشنع ما يكون، اندفاعاً وراء الأهواء السياسية العباسية، حيث كان التركيز على التشهير به كل التشهير، روي أنه:

«مر مطيع بن إياس، بيحيىٰ بن زياد وحماد الراوية، وهما يتحدثان، فقال لهما: فيم أنتما؟ قالا: في قذف المحصنات...»[2].

وقذف المحصنات من الأمور التي تستوجب الحد شرعاً، ولكن حماداً وأصحابه ـ ومطيع هذا هو أحدهم ـ بلغوا ـ كما يصورهم الخبر ـ حد المجاهرة بما في ضمائرهم، ولعل حماداً وزياداً، لم يفعلا ذلك، ولكن الأجواء تعكس ما أصبح شيئاً معتاداً كالحديث العادي البريء.

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٧٧.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٢٨٧.

ومن الملاحظ أن المجون كان إحدى الظواهر الاجتماعية المعروفة في الكوفة، قبل مقدم الدولة العباسية، كما أنه لم يقتصر على عدد محدود من هواة الأدب أو الشعراء، يقول نالينو عن عدد من شعراء الكوفة الذين ذكرهم:

«إن كل من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيين، يليق به أن يوصف بهذا القول: شاعر خليع ماجن منهمك في شرب الخمر»[1].

فمجون حماد، على هذا، مجون طبيعي متأثر بالمحيط الاجتماعي والثقافي، ولم يكن شذوذاً أو انحرافاً منه، ولكن الفرق بين مجون هذا العصر ومجون العصر الذي سبقه، هو أن المُجَّان أخذوا وافر حريتهم، فانطلقوا كيفما يشاؤون، على حين كانوا قبل نهاية العصر الأموي يحتاطون نوعاً من الاحتياط. ويبين مصطفى الشكعة هذه الظاهرة في هذا العصر فيقول:

«أما ندوات المجان من الشعراء فكانت من الانحلال والتهتك بحيث لم نكد نشهد لها مثيلاً في تاريخ المجتمع الإسلامي من قبل أو من بعد. لقد كان الشعراء يلتقون في الأماكن العامة، ثم يحاول كل منهم أن يستأثر بالمجموعة في بيته أو بستانه حيث يخلعون العذار ويعاقرون من ضروب الشراب ويمارسون من أسباب الانحراف ما شاءت لهم طبيعتهم أن يمارسوا، فيقوم كل منهم بوصف ما سوف يقدم لهم من أنواع الإغراء غير الحلال. ويصوغ ذلك كله في قالب من الشعر. ومن يقدم مغريات أكثر من شعر أملح يفوز بالعصبة في بيته»[2].

---

(١) تاريخ الآداب العربية، ص ٢٨٢.
وانظر يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٦٠٥، ٦٠٧.
(٢) الشعر والشعراء، ص ١٨٣.

ومن المؤكد أن الحياة الاجتماعية في الكوفة شجعت على هذا النوع من الممارسات اللاهية، فقد شهدت قبل نهاية العصر الأموي دُوراً للهو والغناء، منها دار ابن رامين ودار زريق بن منيح، ودار محمد بن سيار، ودار القراطيسي... إلخ[1].

وإذا صح أن حماداً كان يشرب النبيذ قبل العصر العباسي، ولا بد أنه كان ممن يرتاد هذه الدور طلباً للهو والغناء، فإنه في العصر العباسي، الذي صُوّر فيه حماد على غير ما كان عليه في عصره السابق، كان أيضاً يشرب بالطريقة نفسها لا بطريقة مغايرة. ولكي نصبح على يقين من أن مثل تلك الأخبار المبالغ فيها حول مجونه، إنما اختُلِقت عليه، علينا أن نضع سِنَّهُ نصب أعيننا، فهو حسب رواية ابن النديم كان قد شارف على الستين سنة «١٣٢ ـ ٧٥ = ٥٧»، (أما حسب التقائه بزياد فيكون قد قارب الثمانين سنة «١٣٢ ـ ٥٣ = ٧٩»)، فإذا أضفنا إلى ذلك السنوات حتى خلافة المنصور (ت ١٣٦ هـ)، فسنكون قد وجدنا رجلاً شيخاً، مهما بلغ به النشاط، فلن يصل الحد الذي وصله أولئك الذين ذكرهم الشكعة من تهتك وانحلال، وواضح من تعبيراته أن هذا الوصف ينطبق على الشباب لا على الكهول من أمثال حماد الراوية، وهذا ما سنجده عند حديثنا عن الزندقة، حيث أُقحم حماد في كل مناسبة.

هـ ـ الشذوذ الجنسي:

هناك ثلاث تسميات لهذا النوع من الاتصال الشاذ، وهي:

الميل إلى الاتصال بالجنس المماثل.

الميل إلى الجنس الآخر.

الميل الأنثوي.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٢٠٩ ـ ٢١٣.

ويكاد الدارسون المحدثون يجمعون على أن الشذوذ الجنسي بوجه عام دخيل على الشخصية العربية والمجتمع العربي، وأنهما ظلا متماسكين خلال الحقبة الجاهلية حتى عصر الوليد بن يزيد على الأقل. ومهما كانت التفسيرات السياسية لربط هذه الظاهرة، أو الظاهرة التي سبقتها (المجون)، بالوليد بن يزيد، فإن عوامل التخلخل الاجتماعي والسياسي كانت قد أخذت تفعل فعلها في الكيان الأموي، حتى أدت إلى سقوطه نهائياً[١].

ويأتي إجماع أولئك الدارسين على تأكيد هذه الحقائق الملحوظة، وفي الكوفة على وجه الخصوص، التي كانت تشكل أيضاً موطن المعارضة السياسية والخروج الاجتماعي على كثير من الأعراف والقيم السائدة، يقول يوسف خليف:

«انتشرت هذه الموجه الشاذة المنحرفة في مستهل العصر العباسي وغمرت في تيارها مجموعة كبيرة من المجان العرب والأجانب على السواء ألفت بينهم، فمضوا يجتمعون ولا يكادون يفترقون، ولا همَّ لهم إلا الشراب والعبث بالغلمان، والتغزل الفاضح بهم في صراحة بغيضة وإباحية مسرفة»[٢].

ويقول عزيز فهمي:

«شاع» الأمر «في العصر العباسي شيوعاً غريباً، وتواردوا الغزل الفاضح بالغلام في شعر أغلب الشعراء...»[٣].

ثم يقول:

«أول من تغزل بالغلمان من الشعراء حماد عجرد ومطيع بن إياس ويحيىٰ بن زياد وتبعهم الشعراء»[٤].

---

(١) خليف، حياة الشعر في الكوفة، ص ٢١٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦١٥.
(٣) المقارنة بين الشعر الأموي العباسي، ص ٢٨٥.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨٧.

فهذه الظاهرة، ظاهرة الشذوذ الجنسي، من ثم، ليست ظاهرة أموية، وإنما هي ظاهرة عباسية. وفيما يتعلق بحماد نجد أن مطيع بن إياس في رسالة شعرية دعا يحيىٰ بن زياد، إلى مجالس اللهو والشرب والغناء، التي حضرها حماد الراوية وحكم الوادي، ومعهم غلام اسمه زياد[1].

إن ما تعكسه أبيات تلك الرسالة هو الرقة في ألفاظها والعذوبة الموسيقية الصادرة عنها، ثم ما تنقله من أجواء لاهية عابثة مكشوفة غير متحرزة، وهي أجواء تنقل صورة عن بعض جوانب الحياة في العصر العباسي الأول، والأمر الأخر الملحوظ، هو أن نوع الشراب المستخدم هناك، هو ذلك النوع المعروف بـ«النبيذ»، أما الجديد في الأبيات، فيما يتعلق بحماد، فهو دعوته إلى ممارسة الشذوذ.

وكما سبق أن مر بنا، فمطيع أحد أصحاب حماد، وكذلك يحيىٰ بن زياد، فالأبيات صريحة الدلالة على إضافة الشذوذ الجنسي إليه.

وتتضمن الأبيات تفرغ حماد إلى لذاته الحسية، فهو يرتكب الفواحش، منصرفاً مع غرائزه دون حد. وقد سبق أن مر بنا اجتماع حماد وبعض هذه المجموعة في بستان بالكوفة ومعهم جوهر المغنية.

إن ما اقتربنا على الاتفاق عليه، هو أن حماداً كان قد بلغ الستين سنة عندما جاءت الدولة العباسية، أو يزيد (أدرك زياداً (ت ٥٣ هـ)، وجاء العباسيون سنة (١٣٢ هـ)، فهل يعقل أن يمارس حماد الراوية في هذه السن هذه الممارسات الشاذة، وأن يأنس به شباب لاهون هذا الأنس؟ لنقل إنه كان يجالسهم، أي يشرب النبيذ معهم، فهل كان يتصرف تصرفاتهم

---

(١) انظر الأبيات في الأغاني، جـ ١٣، ص ٢٩٧.

الشاذة المحرمة، حتى لو اقتصر ذلك على ممارسة الجنس مع النساء.

إن ما يمكن تصوره هو جانبان:

أحدهما:

أن هذه الصورة صورة سابقة على العصر العباسي، وهي صورة تقتصر على شرب النبيذ والاجتماع واللهو في بساتين الكوفة.

الآخر:

أنها صورة من صور بعض شباب المجتمع العباسي، الذين كانوا يمارسون الشذوذ ضمن ما يمارسون من سلوكيات منحرفة، وهو ما يتفق أغلب الدارسين المعاصرين عليه، وهو ما تعكسه العناصر الفنية في الأبيات أيضاً.

وعلى هذا الأساس، فإن الصورة الأولى متفقة تمام الاتفاق مع مجون حماد الراوية، أما الصورة الأخرى، فهي صورة، إن شارك حماد فيها، فهو إنما شارك للمحادثة والمجالسة، وليس للممارسة الجنسية.

وكما اهتزت ثقتنا بخبر تلك الأبيات، نجد أن ثقتنا أكثر اهتزازاً بالخبر الذي يرويه الخريمي الشاعر عن ممارسة شاذة قام بها حماد معه[1]. فهو يصور حماداً في هذا العصر يتمتع بقدرات جنسية شاذة، لا تتفق مع سنه أو تفكيره.

ولا تتوقف هذه الحيطة في قبول هذين الخبرين على الواقع النفسي أو السياسي في هذا العصر، الذي نتصور أن جميع أخباره التي شاعت عنه، فيما يخص جانب الشذوذ والمجاهرة بالمجون، إنما جاءت لاحقاً، وعن أناس، إن صدق ما قيل فيهم، محدودي العدد ـ بل إن هناك أدلة مادية تقف

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨٠.

حائلاً دون تصديقهما التصديق المتسرع، فكما سوف نرى، وألمحنا إلى ذلك، كان حماد ثانوي المنزلة في زمن العباسيين، وكان قبل هذا العصر، ذا أسرة، حتى إن الوليد يأمر له بمال يصرفه على عياله[1].

وثمة إشارة ذات قيمة في هذا الجانب، فإذا كان حماد الراوية شاذاً جنسياً، فلماذا لم يُتَّهم بالهيثم بن عدي (١٢٨ هـ ـ ٢٠٩ هـ)، صاحبه وراويته، كما يقول أبو الفرج[2]، والذي كان هشام بن الكلبي (٢٠٦ هـ)، إذا رآه يذوب كما يذوب الرصاص[3]؟ لماذا سكت أبو الفرج عن مثل هذا التعليق، ولماذا سكتت المصادر الأخرى عن مثل هذه الإشارة، والهيثم، كما نرى، كان يمكن أن يسمى على أقل تقدير غلام حماد لصغر سنه؟.

ولعلنا نصل هنا إلى الخبر الذي يقول:

«قال إسحاق. . . أهدى حماد إلى صديق له غلاماً»[4].

فهو خبر ينقله إسحاق الموصلي (١٥٥ هـ ـ ٢٣٥ هـ)، أي إنه وقع في العصر العباسي، وعلى هذا فهو يقع في دائرة تلك الأخبار التي تظهره بمظهر المستمتع صاحب الوفرة المادية، بحيث يهدي غلاماً إلى صديق له، وما سنقدمه من كشف لحياته المادية في هذا العصر يُسقط هذا الخبر، كما **يُسقط غيره من أخبار مشابهة، إلا أن ما يهم هنا هو أن وصف حماد بالشذوذ، اقتصر على نقل الصورة عنه في مجالس الغناء والطرب في بساتين الكوفة، ولم يأت أي تعليق عن مثل هذه الممارسة الشاذة في أخباره السابقة أو أقواله.**

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٨.

(٣) المصدر نفسه، جـ ١٨، ص ٢٨٤. وهو خبر يبين حقيقةً، حُسن الهيثم، ولكنه يصعب التصديق به لتقارب سن الرجلين، كما هو واضح.

(٤) الأغاني، جـ ٦، ص ٨٠.

لقد تحدثنا حتى الآن عن الشذوذ الجنسي من زاوية الميل للآخر، **وفي أخبار حماد أقوال تتهمه بالأُبْنة**، أي الميل الأنثوي، فمن ذلك قول مطيع بن إياس فيه، حسب رواية ابن منظور:

نَـــحِّ السَّـــوْءَةَ السَّـــوْآ ءَ يَـا حَمَّـادُ عَـنْ خُشَّـهْ
عَـنِ التُّفَّـاحَـةِ الصَّفْـرَا ءِ وَالأُتْـرُجَّـةِ الهَشَّـهْ(٢)

وفي هذين البيتين استخدام للاستعارة التي قد توحي بأن حماداً كان مأبوناً، ولعل هذا هو عين ما قصده من قال فيه:

فَيَـا لَيْتَـهُ أَمْسَـى قَعِيَـدَةَ بَيْتِـهِ لَـهُ بَعْـلُ صِـدْقٍ كَـوْمُـهُ مُتَـوَاتِـرُ
فَحَمَّادُ نِعْمَ العِرْسُ لِلْمَرْءِ يَبْتَغِي الـ نِّكَاحَ وَبِئْسَ المَرْءُ فِيمَنْ يُفَاخِرُ(٣)

فإذا علمنا بعد، أن مطيعاً ـ إذا كان قال ما قال في حماد الراوية ـ كان أحد أصحاب حماد، وأن الرجل الذي قال هذا القول فيه، إنما استثاره حماد عندما حط من قدره، لأنه لا يستطيع أن يقول شعراً، بدا لنا أن هذا السلوك ليس من سلوك حماد، وإنما كان دافعه المداعبة والمزاح من قِبَل مطيع، والغيظ والانفعال من قبل الرجل. ويحتمل بيتا مطيع معنى آخر، فهو يقول له: استر من عيوبك الرذيلة ما إن لو ظهر، لأفسد رائحة الطيب الذكية، بل تعدى ذلك إلى التفاحة والأترجة الناضجتين، ولذلك قال له: «**السوءة السوآء**».

أما قول الرجل، فينقضه قول حماد نفسه له:

«حسبنا، عافاك الله، هذا المقدار وحسبك! قد علمنا أنك شاعر وأنك قائل الشعر الأول وأجود منه، وأحب أن تكتم هذا الشعر ولا تذيعه،

---

(١) اللسان، «خشش». حذف المتحرك الأول من «نحِّ» ولعلها (فنح).
خش: الطيب بالفارسية، عربته العرب، وقالوا: المرأة خشة، كأن هذا اسم لها.
(٢) الأغاني، جـ٦، ص ٨١ الكوم: النكاح.

فتفضحني؛ فقال له: قد كنت غنياً عن هذا. وانصرف الرجل، وجعل حماد يقول: أسمعتم أعجب مما جَرَرت على نفسي من البلاء!»[1].

وهذا يعني أن الأبنة ليست من خصاله، وأنه مجرد هجاء شخصي. وقد كان حماد يتهم مطيعاً بأنه حَلَقي[2].

ولعلنا نجد في ذلك الادعاء ما يلغي الادعاء السابق عليه، فكلتاهما تهمتان يناقض أحداهما الآخرى، فالرجل الميال للجنس المماثل، لا يكون في الوقت نفسه رجلاً أنثوياً، كما يصوره قول مطيع وقول الرجل، خاصة أن سيرة حماد لا تعكس هذا السلوك الآخر عليه، على الأقل. ولم نجد أياً من خصومه أو أنداده في أي من العصرين، يتهمه بواحدة منهما، بل كان محل إعجاب وتقدير عند كل من اجتمع به.

وكما كان ذلك هجاء شخصياً فيه، أو ردة فعل غاضبة من نقد، فإن أبا الغول عندما قال يهجوه أيضاً:

حَمَّـادُ يَـا ضَبْعـاً تَجُـرُّ جِعَـارَهَـا أَخْنَـى لَهَـا بِـالقَـرْيَتَيْـنِ جَـرَادُ
سَبْعـاً يُـلاَعِبُهَـا ابْنُهَـا وَبَنَـاتُهَـا وَلَهَـا مِـنَ الخِـرَقِ الكِبَـارِ وِسَـادُ[3]

هو قول لا يختلف عن سابقه، ويراد منه إظهار حماد بذلك المظهر الشائن؛ هذا إن كان المهجو حماداً الراوية حقاً، أما إذا كان المهجو حماداً آخر، وهو الواقع، كما سيأتي من حديث، فإن هذه التهمة كلها يمكن نقضها من أساسها، لأنها تنصرف إلى غيره ولا تخصه، كما سوف نرى وسيثبت لنا ذلك أيضاً.

ولو عدنا لاستجلاء الحقيقة من هذا الركام، لوجدنا أن حماداً بريء

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص ٨١.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ص ٣٢٩ـ ٣٣٠.
(٣) الأغاني، جـ٦، ص ٨٢. الجعار: جمع جعر، وهو كل ذات مخلب من السباع.

من كل هذا التشويه، فالبيتان اللذان نسبهما ابن منظور لرجل لم يذكر اسمه في حماد الراوية، هما في الحقيقة لحماد عجرد في مطبع بن إياس، وهو يعني بالخشة صلعته الفاقعة الاحمرار[1].

أما الخبر الذي رواه أبو يعقوب الخريمي، وجمع فيه بين حماد الراوية وحماد عجرد حين قال سابقاً:

«كنت في مجلس فيه حماد عجرد وحماد الراوية ومعنا غلام أمرد، فنظر إليه حماد الراوية. . . .»[2].

فهو خبر باطل منقوض من أساسه، فحقيقته أنه ليس في حماد الراوية، وإنما هو في حماد عجرد، وقد أضيف حماد هناك لمجرد توارد الأسماء، وما يمكن أن يكون ذلك العمل من حماد الراوية، فهذا هو الخريمي نفسه يأتي ليروي الخبر مع فاعله الملائم له، وعلى وجهه الصحيح، فيقول:

«كنت في مجلس فيه حماد عجرد، ومعنا غلام أمرد، فوضع حماد عينه عليه. . .»[3].

والقصة هنا بألفاظها ونسيجها السابقين، إلا أنها خلت من اسم حماد الراوية.

وهكذا فيما يتعلق بالخبر الثاني، الذي رواه إسحاق، والذي يذكر فيه أن حماداً الراوية أهدى غلاماً إلى صديق لم يفصح عن اسمه، وختم رسالته إليه بقوله:

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٢٨١.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٨٠.
(٣) المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٣٢٤.

«أهدى حماد إلى صديق له غلاماً، وكتب إليه: قد بعثت إليك غلاماً تتعلم عليه كظم الغيظ»[1].

فهو أيضاً ليس في حماد الراوية، وإنما في حماد عجرد حقيقة، وبالأسلوب نفسه فهو يقول رواية عن أبي يعقوب الخريمي كذلك:

«أهدى مطيع بن إياس إلى حماد عجرد غلاماً، وكتب إليه: قد بعثت إليك بغلام تتعلم عليه كظم الغيظ»[2].

و ــ الزندقة:

تحقق لنا الآن أن تلك الصورة التي نقلتها المصادر العباسية، كانت صورة خالفت كثيراً من الحقائق والوقائع التاريخية، فهي لم تقدم حماداً إلا ماجناً سكيراً عربيداً شاذاً جنسياً كل الشذوذ، فتغافلت بذلك عن سن الرجل وعن ظروفه السياسية والاقتصادية التي جاءت بعد ذلك مرددة الأقوال نفسها، وأضافت ما لديها بدوافع من اتجاهاتها، بل تجاوزت ذلك إلى إكمال الصورة، حتى يتناسب وضع حماد فيها تماماً مع العصر العباسي، فيصبح أحد أعضائه النشطين ممن برزوا أعلاماً في هذا التيار الجارف.

إنما تكشف لنا حتى الآن، أن حماداً كان مدمناً على شرب النبيذ، وله صحبة بجماعة معروفة في الكوفة بهذا الميل إلى الشراب، ذلك كان قبل نهاية العصر الأموي، واستمر حتى مجيء العباسيين، ثم كان التحول الخطير في العصر العباسي الأول عندما حدث انقلاب سياسي واجتماعي في المجتمع العباسي كلِّه، وكان تأثيره شديداً على الكوفة خاصة، فإذا بشباب الكوفة يخلعون عذارهم ويعلنون تمردهم على كل الأعراف والآداب

---

(١) المصدر نفسه، جـ٦، ص ٨٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ١٤، ص ٣٣٨.

الاجتماعية. حقاً كانت هناك بوادر واضحة لهذه الخلاعة وهذا التمرد، وهو ما عبر عنه يوسف خليف بـ «**الجسر الذي يصل بين الشاطئين الأموي والعباسي**»[1]. ولكن التحلل نهائياً من القيود الدينية والاجتماعية، إنما حدث بفعل هذا الانقلاب.

لقد كان حماد يجتمع بعدد من أصحابه الذين لم يكن الجامع بينهم هو حب الشراب وحده، بل حب الأدب أيضاً. يقول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ):

«**كان حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزبرقان، ويونس بن هارون، وعلي بن الخليل ويزيد بن الفيض، وعُبادة، وجميل بن محفوظ وقاسم، ومطيع، ووالبة بن الحباب، وأبان بن عبد الحميد، وعمارة بن حربية، يتواصلون وكأنهم نفس واحدة، وكان بشار ينكر عليهم**»[2].

فهذه المجموعة تجمع بينها صداقة حميمة حتى «**كأنهم نفس واحدة**». وليس في تعبير الجاحظ ما يوضح سلوك أي منهم، وإن كنا نرى أن هذا التواصل إنما كان للتقارب الفكري والعقلي والنفسي، ولعل وسيلة التقارب هو الشراب «النبيذ». صحيح أن بعضهم رمي بالشذوذ، وكان مفضوحاً به مثل والبة بن الحباب، صاحب أبي نواس[3]، ولكن الجاحظ يقول: «**وكان بشار ينكر عليهم**»، فبشار (ت ١٦٧ هـ/ ٧٨٤ م) ينكر عليهم هذا التواصل، أي الاجتماع الذي ربما كان للهو والمتعة الذي كان الشراب (فيما يخص حماداً كما بينا) وسيلته، ولا يمكن أن يعني الجاحظ بهذا أنه ينكر عليهم الزندقة، لأن بشاراً نفسه كان من المرميِّين بها. فالزندقة تقع

---

(١) حياة الشعر في الكوفة، ص ٦٠٥.

(٢) الحيوان، جـ ٤، ص ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

(٣) الأغاني، جـ ١٨، ص ٤٨، ابن منظور، أخبار أبي نواس، ص ١٢٧.

خارج اتهام الجاحظ، كما تقع أيضاً خارج اتهام بشار. وقد يكون بعضهم أيضاً زنديقاً، كما في حالة مطيع بن إياس (ت ١٦٦ هـ/ ٧٨٣ م)، الذي اعترفت ابنته للرشيد بأنها تعلمت دين الزنادقة وقرأت كتبهم[١]، كما كان حماد عجرد إماماً من أئمة الزنادقة[٢]، ولكن عبارة الجاحظ لا تحتمل الزندقة، بل لا تحتمل حتى الشذوذ الجنسي، وقد تنصرف إلى طلب الاجتماع والاستئناس على الشراب.

ثم جاء ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، فقال:

«وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحَمَّادون: حماد عجرد، وحماد الراوية، وحماد بن الزبرقان النحوي، وكانوا يتنادمون ويتعاشرون، وكأنهم نفْس واحدة، ويُرْمَون جميعاً بالزندقة»[٣].

وبعد ذلك جاء عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ)، فجاء بعبارة الجاحظ وابن قتيبة معاً، بعد أن أضاف إليها ما يراه من تفسير، فقال:

«وكان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون: حماد عجرد وحماد بن الزبرقان، وحماد الراوية، يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون أجمل معاشرة، وكانوا كأنهم نفس واحدة»[٤].

وتفسير ابن المعتز هنا، هو ذلك التفسير المحتمل في علاقات هؤلاء الاجتماعية والفكرية، إنهم: **«يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار»**، ولعل من الملاحظ أن ابن المعتز قال: **«يتعاشرون أجمل معاشرة»**، فبالإضافة إلى أن هذه العبارة تؤكد ذلك اللقاء الاجتماعي، فإنها تخلو من

---

(١) الأغاني، جـ ١٣، ص ٢٩٦.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٣٢٤.
(٣) الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٧٧٩.
(٤) طبقات،، ص ٦٩.

الطعن فيهم ـ وما يهمنا هنا حماد ـ باتهامهم بالشذوذ، وعلى الأقل حسب رواية الخريمي السابقة. فحماد، إذا ما اجتمع بهؤلاء، وهو ابن الكوفة وهم أبناؤها، إنما يجتمع معهم على الشراب حسب تفسير ابن المعتز.

وتتجلى لنا عند هذا الحد من نقل الاهتمامات بحماد، الصورة التي رسمت عنه عند ظهوره على المسرح الأدبي حتى أواخر لحظات حياته، ولكن تداخل الصور وتداخل الشخصيات، جر ابن المعتز إلى أن يستكمل عبارته، فيقول عن أولئك جميعاً:

«وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة، وإذا رأى الناس واحداً منهم، قالوا: زنديق! اقتلوه»[1].

فهنا نجدهم **«جميعاً»**، ونجد أن الناس إذا رأوا **«واحداً منهم»**، ونجد أن هؤلاء الناس كلهم يلاحقون أولئك ويصيحون وراءهم: **«زنديق! اقتلوه»**. وهذه إضافة أدبية، ولا شك، من ابن المعتز، إذ كيف يتفق الناس جميعاً هذا الاتفاق على القول والعمل، ثم يسلم كل من ذكرهم من القتل أو حتى المضايقة على أيدي الناس؟ أليس فيما نُقل عنهم من أخبار ما يخالف هذا الزعم كل المخالفة؟ ألم يعش هؤلاء تحت مرأى من السلطات الشرعية والرسمية، دون أن يلحق بهم أدنى ضرر؟ ثم أين سجن الزنادقة[2]، عن أي منهم؟ بل كيف ينظر المجتمع هذه النظرة العدائية لهؤلاء، ثم هم يتمتعون ويأنسون كيفما شاء لهم التمتع وحلا لهم الأنس؟ ألم يرسل المنصور رسوله من بغداد لأخذ رأي حماد الراوية عن الأعشى، ويجده الرسول على تلك الحالة السيئة؟ ألم يجالس حماد المهدي، حسب رواية ابن النديم؟ وقد قبلنا امتداد عمره حتى سنة ١٦٦ هـ.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٢٤.

ولما جاء أبو الفرج (ت ٣٥٦ هـ)، وجد بين يديه ثلاثة نصوص: نص الجاحظ، ونص ابن قتيبة، ونص ابن المعتز، فأضاف إلى الأول ما استجد لديه من أسماء فقال:

«حماد بن العباس... كان هو ومطيع بن إياس وحماد الراوية ويحيىٰ بن زياد كأنهم نفس واحدة»[١].

والجديد هنا هو إضافة يحيىٰ بن زياد، ثم إضافة حماد بن العباس، وتثبت هذه العبارة مقولة الجاحظ السابقة: **«كأنهم نفس واحدة»**. وهو ما يساير حقيقة أولئك حسبما بينا. أما فيما يخص نص ابن المعتز، فيقول أبو الفرج:

«كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم الحمادون: حماد عجرد، وحماد بن الزبرقان، وحماد الراوية، يتنادمون على الشراب، ويتناشدون الأشعار، ويتعاشرون معاشرة جميلة، وكانوا كأنهم نفس واحدة، وكانوا يُرمَون بالزندقة جميعاً»[٢].

وهو عين نص ابن المعتز، إلا أنه يخلو من الإضافة الأدبية التي أضافها ابن المعتز: **«وإذا رأى الناس واحداً منهم، قالوا: «زنديق! اقتلوه»**. ولعل أبا الفرج أدرك أن هذا لم يقع، فحذفه، وأبقى على بقية الرواية، ذلك أنه أعاد تكرار هذه المقولة حين ذكر، مضيفاً إلى تلك الجماعة، عمار ذي كناز:

«عمار ذي كناز...

كان هو وحماد الراوية ومطيع بن إياس يتنادمون ويجتمعون على

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١٣، ص ٣٢٠.

(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٧١.

شأنهم لا يفترقون، وكلهم كان متهماً بالزندقة»[1].

كما أضاف إلى النص السابق على هذا في موضع آخر قوله: **«وأشهرهم بها حماد عجرد»**.

ويهمنا هنا، تعبير أبي الفرج: **«وكلهم كان متهماً بالزندقة»**، وفي هذا القول تشكيك فيما نقله هو نفسه عن تأكيد ابن المعتز على زندقة هؤلاء، ولنقل حماداً خاصة. وعندما تصبح المسألة مسألة تهمة لا تأكيد، يصبح الاتهام نفسه موضع اتهام.

إنه لمن الواضح جيداً أن حماداً الراوية كثيراً ما أُقحم في هذا الوسط الذي عاشره معاشرة منادمة واستلطاف ـ إن كان عاشره حقاً ـ، فجنى عليه ذلك وزر اتجاهات بعضهم، صحيحة أو مفتراة. إن هذا هو حقيقة ما وجدناه عند ابن المعتز، وتجرد من مسؤوليته الجاحظ، الذي جعل بشاراً ينكر على تلك المجموعة توجهها نحو اقتراف اللذات، وهو المتهم بزندقته والمشكوك في دينه.

ولكن أبا الفرج عاد فأقحم بشاراً في وسط هذه المجموعة، وهو ما لم يفعله الجاحظ، ولم يذكره أبو الفرج نفسه سابقاً عنه، فقال رواية عن الجاحظ نفسه:

> **«كان والبة بن الحباب، ومطيع بن إياس، ومنقذ بن عبد الرحمٰن الهلالي، وحفص بن أبي بردة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عجرد، وعلي بن الخليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وحماد بن الزبرقان، وعُمارة بن حمزة، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ، وبشار بن المرعث، وأبان اللاحقي، ندماء يجتمعون على**

---

(١) الأغاني، جـ ٢٣، ص ص ٣٦٧ـ٣٦٨.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١٤، ص ٣٠٦.

الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم هزلاً وعمداً، وكل متهم في دينه»[1].

وعلى هذا النحو من تناقل الخبر، وتداخل الأهواء والميول، نجد الشريف المرتضى يأتي بنص الجاحظ، ليس من مصدره الأصلي، بل منقولاً عن غيره، ومدفوعاً بتأثراته، فإذا بنا نجد المجموعة تتسع لتشمل عدداً آخر من الأصحاب، يقول:

«قال عمرو بن بحر الجاحظ: كان منقذ بن زياد الهلالي، ومطيع بن إياس، ويحيىٰ بن زياد، وحفص بن أبي ودة، وقاسم بن زنقطة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عجرد، وعلي بن الخليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وحماد بن الزبرقان، ووالبة بن الحباب، وعُمارة بن حمزة بن ميمون، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ المهلبي، وبشار بن برد المرعث، وأبان اللاحقي، يجتمعون على الشرب وقول الشعر، ويهجو بعضهم بعضاً، وكل منهم متهم في دينه...»[2].

ومع أن الشريف المرتضى أكد تعبيرات الجاحظ وابن المعتز وأبي الفرج، حول الالتقاء على الشراب وتناشد الأشعار: «**يجتمعون على الشرب، وقول الشعر**»، فإنه أضاف ههنا قوله: «**ويهجو بعضهم بعضاً**»، ولعل هذا القول يفسر بعض ما ذكرناه من اتهامات بالشذوذ، لأن الهجاء ذِكْر للمثالب والعيوب، رغبة في تشويه الخصم وتحقيره، خاصة بعد أن تبين لنا عدم صحة ذلك، وإلى جانب ذلك، فإن الشريف المرتضى استعمل تعبيراً مشابهاً لتعبير أبي الفرج الأخير، حين قال: «**وكل منهم متهم في دينه**»، فعلى الرغم من أننا هنا أمام شريحة واسعة من الشعراء والأدباء

---

(١) المصدر نفسه، جـ ١٨، ص ٤٤.

(٢) الأمالي، جـ ١، ص ١٣١.

والمفكرين، ومن بينهم حماد الراوية، فإن كل ما تنوقل عنهم، ما يزال مجرد اتهام، وللمرء أن يعجب، كيف حشر الشريف المرتضى كل هؤلاء في فقرة واحدة، مع ما بينهم من تناقضات في المزاج والتفكير والأخلاق، حتى إن أحدهم، وهو حماد عجرد شديد الإيذاء لبشار وينفر منه[1]. وفي هذا دلالة قاطعة على عدم أمانة نقل الخبر، مما ينبغي الاحتياط في ذكره والاستشهاد به.

فإذا كان هذا هو واقع الخبر عن هذه الفئة من الناس، فإنه لا مناص من الحذر في قبول قوله أيضاً عن حماد الراوية:

«أما حماد الراوية، فكان منسلخاً من الدين، زارياً على أهله مدمناً لشرب الخمور وارتكاب الفجور»[2].

فكون حماد «**مدمناً لشرب الخمور**»، أمراً أصبح مقرراً الآن، مع التأكيد على أن المقصود بـ«الخمور»، هو الأنبذة، جمع نبيذ، أما أنه مرتكب الفجور، فإن تفسير معنى الفجور ليس محدداً، فإذا كان يعني به الشذوذ، فإن أدلة الاتهام ضده لا حقيقة لها، وإذا كان يعني به النساء، فإنه اتهام يفتقر إلى أي دليل. والظاهر أن ما يقصده به هو عين ما ذكره: «**كان منسلخاً من الدين**». ولا دليل على هذا مطلقاً إلا ما تردد أخيراً عنه على لسان ابن قتيبة وابن المعتز وأبي الفرج، وهو انعكاس للتصرف الذي أشيع عنه في أخريات حياته، وهو الإدمان. وفي الفقرة السابقة، توضيح لما مر عن اتهامه بالزندقة، فمع أن الفقرة التي سبقتها قالت: «**وكل منهم متهم في دينه**»، فإن الفقرة الثانية، جاءت لتجعل حماداً، وهو أحد السابقين، «**منسلخاً من الدين**»، وهو تأكيد على انحرافه عن الدين، بدلاً

---

(١) الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٢١، ٣٢٢ـ ٣٢٥ـ ٣٣٣، ٣٦٥، ٣٨٠.
(٢) الأمالي، جـ ١، ص ١٣١.

من اتهامه في السابق. ومع كل ذلك فالشريف المرتضى لم يصفه، ولم يصف أحداً من أولئك بالزندقة، مع أن هذا الوصف قال به من سبقه.

وسواء وَصَف الشريف المرتضى أو غيره، حماداً بـ«**الزنديق**»، أو «**الانسلاخ من الدين**»، فإنا مطالبون بحقائق ثابتة تبين ذلك، إذ إن مجرد الإدمان على الشرب، لا يجعل المرء يَتَّخذ موقفاً فكرياً، ولا يجعله أيضاً منسلخاً عن الدين. قد يتهم في دينه، ولكن ذلك لا يبلغ به حد الوصف بالزندیق أو الانسلاخ من الدين، أي الخروج منه، لا سيما إذا لم يعكس ذلك موقفاً فكرياً يتبناه المرء تجاه الدين أو الحياة.

ولعلنا الآن نتساءل عن قول الشريف المرتضى: «**زارياً على أهله**»، فعلى أي شيء اعتمد هذا الحكم؟ أعلى الجاحظ، والجاحظ لم يقل شيئاً من ذلك، أم على خبر مروي أم سند ثابت؟ إن كل ذلك غير موجود، ولا أساس له إلا الإقبال على الشراب. والإقبال على الشراب، ليس إدماناً كما قيل عن حماد وجماعته: «**يتنادمون على الشراب**»، الذي يبلغ بهم أحياناً حد السكر، **ولا يجعلهم مدمنين مخمورين سكارى**، فهم: «**يتناشدون الأشعار، ويتعاشرون أجمل معاشرة**». إن معنى الإدمان على الشراب، يعني عدم التخلص منه، ولكنه لا يعني فقدان الذاكرة والعقل. فحكم الشريف المرتضى، حكم شرعي جعل الشراب، هو الخمر، ولشارب الخمر حكمه في الإسلام، فما بالك إذا كان الرجل مدمناً على شرابه غير منقطع عنه أو تائب. أما حكم ابن المعتز فحكم سياسي جر إليه انضمام حماد إلى مجموعة فيها من اتهم بالزندقة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه حكم ليس له مقومات ثابتة كما تبينا. ويبقى بعد ذلك رأي الجاحظ، وهو أقرب إلى واقع أولئك الأفراد.

إن كل هذا النقاش ليجعل المرء يرفض تماماً فكرة الزندقة فيما يخص حماداً، محل دراستنا، حتى لو رأى أحمد أمين عقد صلة بين

الزندقة واللهو والمجون، ثم أقره على رأيه هذا يوسف خليف الذي زعم قائلاً:

«ليس من العسير أن نفهم هذه الصلة التي تربط بين الظاهرتين فإن حياة اللهو والمجون تدفع بصاحبها إلى التحلل من الدين».

ثم راح يوسف خليف يعلل هذا بقوله:

«لأن الدين هو الذي يقف بينه وبين هذه الحياة، ويحول بينه وبينها، ولم يكن هناك مفر من أن يطرح هؤلاء المجان الدين وراء ظهورهم ليشربوا كؤوسهم حتى الثمالة، فمضوا يسخرون من المتشددين في الدين ثم مضوا يسخرون لا من المتشددين في الدين فحسب، بل من المتمسكين به أيضاً، ودفعهم حرصهم على الشراب إلى السخرية ممن يقول بتحريمه، ثم انتهى بهم الأمر إلى التعرض للدين نفسه بالشك، حتى وصل بهم إلى الإلحاد الصريح»[1].

فيوسف خليف لم يكتف بتأكيد إقبال هؤلاء على الشراب، كما أشار في أكثر من موضع في كتابه، بل جعل الشراب، الذي حدده بالنبيذ، والذي أشار إلى أن علماء الكوفة كانوا لا يرون فيه بأساً[2]، محرماً هنا، وجعل هؤلاء المجان يسخرون ممن يقول بتحريمه، وهكذا فعل أحمد أمين ويوسف خليف، ما فعل الأقدمون عندما عمموا الظاهرة، ظاهرة المجون المحددة بالإقبال على النبيذ لتشمل الزندقة، فإذا بالحقائق ينقض بعضها بعضاً. والملاحظ أن يوسف خليف، الذي ذهب ذلك المذهب في الجمع بين المجون والزندقة في أول كتابه، عاد في آخره ليبطل ذلك الجمع فيوجد نوعين من الزندقة، النوع الأول يشمل الاستهتار بالدين وعقائده للإغراق في الشراب والإدمان له، والنوع الثاني، زندقة دينية خالصة تشك في الإسلام بدافع الإلحاد واعتناق المانوية أو غيرها من

(١) حياة الشعر في الكوفة، ص ٢٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٢١٨ ـ ٢٢١.

الديانات الفارسية، وهو لهذا لا يريد أن ينجر ـ كما زعم ـ وراء إثارات الشريف المرتضى حول هؤلاء[1].

ومهما يكن، فلو صح ما قالاه عن بعضهم، فإنه فيما يتعلق بحماد الراوية، حتى حسب هذا الفهم الأخير، أمر اختلطت أوراقه، وغابت حقيقته في طوايا الاتهام والترويج.

وربما اعتمد الشريف المرتضى ومن سبقه على قول أبي الغول في هجاء حماد:

نِعْـمَ الفَتَـى لَـوْ كَـانَ يَعْـرِفُ رَبَّـهُ وَيُقِيـمُ وَقْـتَ صَـلاَتِـهِ حَمَّـادُ

هدلت مشافره الدنان[2]...

وهو قول مر بنا بعضه في اتهامه بشرب النبيذ والشذوذ، وهو يجعله لفرط شربه لا يعرف ربه، ولا يقيم الصلاة. ونحن هنا لسنا أمام رجل مفكر كابن المقفع، أو رجل شاعر معروف كبشار، وإنما أمام رجل يقبل على الشراب، حتى يشغله ذلك عن ذكر ربه وعن إقامة الصلاة. وهذان التصرفان يستحقان العقوبة الشرعية، إلى جانب التصرف السابق، وهي تصرفات تدفع بالمرء إلى إصدار حكم على حماد بالتقصير في الدين ومخالفة الأوامر الشرعية. ومن هنا قبل الشريف المرتضى هذا، فحَكَم ذلك الحكم، عندما وصف هذه المجموعة بالزنادقة، ونحن نقبل هذه الأحكام، على حماد، لو أن أنها استندت إلى توثيق من أية جهة، أما أن تتداخل الأخبار والأسماء حتى يندرج حماد فيها، فإن هذا أمر لا يقبله

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦١٨.

(٢) الأمالي، جـ ١، ص ١٣١ ـ ١٣٣. لم ينسبه المرتضى هنا إلى أبي الغول، ونسبه إلى رجل، والشطر الأول من البيت الثاني:

بسطت مشافره الشمول....

العقل أو النقل، فهذا هو الشريف المرتضى نفسه، الذي نقل تلك الاتهامات عن حماد، يقول بشأن هذه الأبيات:

«أما حماد بن الزبرقان، فهذه طريقته في التخرم، والتهتك، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب، قال: أخبرنا ابن دريد، قال: أخبرنا الأشناندانى، قال: دعا حماد بن الزبرقان أبا الغول النهشلي إلى منزله، وكانا يتقارضان، فانتهره أبو الغول، فلم يزل المفضل به حتى أجابه، وانطلق معه، فلما رجع إلى المفضل قال: ما صنعت أنت وحماد؟ قال: اصطلحنا على ألاَّ آمره بالصلاة، ولا يدعوني إلى شرب الخمر. وأنشد المفضل قوله:

نعم الفتى لو كان يعرف ربه.

وذكر الأبيات..... منسوبة إلى هجاء حماد الراوية»[1].

فالهجاء إذن، لم يكن في حماد الراوية، وإنما في حماد بن الزبرقان، وهو هنا خبر موثق مستند إلى رواة علماء من بينهم ابن دريد والأشناندانى (ت ٢٨٨ هـ)، فالأشناندانى هو راوية الخبر. وبهذا تزداد ثقتنا في نسبة هذا الهجاء إلى حماد بن الزبرقان لا حماد الراوية.

وهناك عوامل مضعفة للخبر في حماد الراوية منها قوله: «**يتقارضان**»، وكما سنتبين، فحماد لم يكن ممن يقرض الشعر حتى يبلغ به مبلغ أبي الغول، حتى لو قبلنا هنا أنه كان يقرض الشعر أصلاً. والخبر يقول: «**فلم يزل المفضل به حتى أجابه، وانطلق معه**»، ونحن نعلم علاقة حماد الراوية بالمفضل الضبي، وهي: علاقة منافسة وتشهير. فإذا أضفنا إلى ذلك شكوك أخرى من مصادر أخرى، منها أن ابن خلكان، يذكر أن بشار بن برد، هو الذي قال ذلك في حماد عجرد[2]، ثم يضطرب الخبر،

---

(١) الأمالي، جـ ١، ص ص ١٣٢ ـ ١٣٣.
(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢١١.

فيجعله ابن قتيبة في حماد الراوية يقوله حماد بن الزبرقان[1].

وجدير بنا أن نعود إلى ذلك اللبس في الأسماء، لا سيما بين حماد بن سابور وحماد الراوية، وذلك يعني أن تلك الشخصية الأخرى التي التبست بحماد الراوية، كانت هي الطاغية، ولعل الإشكال يحل لو تكشفت لنا بعض خيوط تلك الشخصية. وهنا، وعلى الرغم من الإلحاح المتزايد على أن الصواب هو أن الأبيات في غير حماد الراوية، فإن الجاحظ ينسبها إلى حماد بن سابور في حماد الراوية[2].

ومع أننا على ثقة تامة بأن أبا الغول قاله في هجاء حماد آخر، فإن هذا الخبر برمته يدخل في باب الهجاء الشخصي، الذي يهدف إلى الإنقاص من قدر الآخر والحط من قيمته، وقد لاحظ يوسف خليف فيما لاحظه على أعضاء هذه المجموعة ما أسماه بـ «**المعابثات**»، فذكر عبث مطيع بحماد عجرد، وملاحاة مطيع لصديقه يحيىٰ بن زياد[3]. وقد ذكرنا المهاجاة بين حماد عجرد وبشار وبين حماد بن الزبرقان وأبي الغول، وهؤلاء كلهم شعراء معدودون، أما حماد، فليس أحدهم، مهما بلغت شاعريته، وإنما وقع اسمه مكان آخر، فتحمل حماد الراوية وزره.

لقد كنا نناقش الأقوال كلها واحداً بعد الآخر حتى يثبت صدقها من بطلانها، وقد كانت الأدلة يأخذ بعضها بعنق الآخر مؤدية إلى استبعاد أغلب تلك التهم التي راجت حوله، وها نحن نأتي بتأكيد يبين تداخل الأسماء، واستبدال اسم حماد عجرد بحماد الراوية قصداً أو عن غير قصد، يقول الزبيدي في تاج العروس عما روي من هجاء حماد أبا عطاء السندي:

---

(١) الشعر والشعراء، جـ ٢، ص ٧٧٩.

(٢) البرصان والعرجان، ص ص ٣٠٠ـ٣٠١.

(٣) حياة الشعر في الكوفة، ص ص ٦٢٨ـ٦٢٩.

«الصواب لحماد عجرد، يعالي أبا عطاء محاجاة»[1].

ويمكن أن نقيس على مثل هذا الاستبدال مجمل ما مر أو يمر بنا فيما يتعلق بحماد الراوية، كما لاحظنا في الخبر الذي ساقه الشريف المرتضى عن حماد بن الزبرقان وأبي الغول، وفي هجاء حماد عجرد لمطيع.

ثم إنه لو كان حماد زنديقاً، أو متهماً في دينه، لذكر ذلك ابن النديم في ترجمته له، أو لأشار إليه ضمن من أشار إليهم في الفصل الذي عقده عن الزنادقة[2]، وقد كانت هذه الاتهامات بين يديه، غير أنه استبعدها، الأمر الذي يحقق عدم قناعته بها.

ولا بد أخيراً أن نذكر أن بداية ملاحقة الزنادقة، جاءت وحماد على قيد الحياة وهو يجالس المهدي، كما أشرنا سابقاً، فقد بدأت في عهد المهدي سنة (١٦٣ هـ/ ٧٧٨ ـ ٧٧٩ م)[3].

ومما يمكن أن نشير إليه هنا، هو أن الحمَّادين ممن هم على تلك الصفة كثيرون، فمنهم حماد بن يحيىٰ، الذي يُقْرَن أحياناً بحماد عجرد، يقول أبو الفرج عن أمير البصرة محمد بن أبي العباس في عهد أبي جعفر المنصور:

«وأصحبه المنصور قوماً يعاب بصحبتهم مجاناً زنادقة، منهم حماد عجرد، وحماد بن يحيىٰ، ونظراء لهم...»[4].

ويكشف عن هذا الخلط الذي وقع بين حماد الراوية وحماد عجرد أو

---

(١) «عوف».

(٢) الفهرست، ص ص ٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٣) *Taheri, Zandaqa, P. 176*.

(٤) الأغاني، جـ ١٤، ص ٣٦٩.

حماد بن الزبرقان أو أي حماد آخر، ذلك الخلط الذي وقع بين اسمه واسم حماد بن سلمة الذي لَحَّن سيبويه في إعراب: «ليس أبا الدرداء»، الذي نطقه سيبويه: «ليس أبو الدرداء»، إذ يعلق السيرافي عليه فيقول:

«لا أظن اليزيدي عنى حماداً الراوية، وإن كان مشهوراً برواية الشعر والأخبار، لأنه من أهل الكوفة، وإنما قصد اليزيدي تفضيل أهل البصرة»[1].

وفي تعليق السيرافي ما يكشف عن مكانة حماد الراوية من جهة، كما يكشف من جهة أخرى عن الدوافع وراء تحميل الطرف الآخر المناوىء كل جريرة ونقصان.

واستناداً إلى هذه المداخلة بين حماد الراوية وحماد عجرد خاصة، نذهب إلى الظن كثيراً أن المقصود دوماً هو حماد عجرد، كما تبينا في أكثر من مناسبة، ومنها ما رواه إسحاق الموصلي عن إهدائه غلاماً، ثم ذكر ذلك أبو يعقوب الخريمي عن حماد عجرد. ومما يحمل على ذلك الظن أن إسحاق الموصلي ألف كتاباً عن حماد عجرد[1]، ولعل القوم كانوا منه ينقلون، ثم تشتبه عليهم الأسماء.

ز ــ تدينه:

إن كل ما مر بنا سابقاً من جدل حول الزندقة التي اتهم بها حماد، ومن مسايرة لما تردد عند اتهامه بالتساهل في الدين، أو عَرْض لمسائل أخلاقية كالشذوذ، والمجاهرة بالفحشاء، إنما كان من قبيل الاستعراض والبحث، وليس من قبيل الموافقة أو التبرير، كما يتبين من ذلك، ولهذا كنا نغض الطرف أحياناً حتى عن إيجاد مخرج مذهبي لاستخدام النبيذ،

---

(١) أخبار النحويين، ص ٣٤.

(٢) الزركلي، الأعلام، جـ ١، ص ٢٨٣.

كما قبله علماء العراق، على أساس أن الشرب ما دام يؤدي إلى السكر، فهو خمر شرعاً. وإذا تركنا الآن جانباً، العامل السياسي، الذي سنتناوله بعد قليل، والذي أسهم أيما إسهام في تشويه صورة حماد، فإن العامل الديني كان قد أُغفل منه جانب إيجابي ذو أهمية بالغة في دحض ذلك الجانب السلبي من حياته، أو على الأقل في التخفيف من المغالاة باتهامه بالانسلاخ من الدين أو الزراية لأهله، على حد تعبير الشريف المرتضى، أو إدخاله في زمرة الزنادقة، كما فعل ابن المعتز.

ومما يلفت النظرلا إلى حد بعيد، أن هذه الصورة المشوهة، التي تهوي به في حُمّى الانحطاط والرذيلة، إنما جاءت عنه في إبان حياته في العصر العباسي، ولم تنقل عنه في حياته في العصر الأموي، حتى إنه يحق لنا أن نزعم أن المرحلة السابقة على العصر العباسي، التي وصفها يوسف خليف بالجسر العابر إلى الطرف الآخر، كانت مرحلة معتدلة فيما يتعلق بحماد، وقد مر على ذلك الجسر بسلام، حتى جرته الميول السياسية والمذهبية فجأة إلى الطرف الآخر، وأغفلت حقائق ثابتة عن حياته السابقة.

وإذا كنا حتى الآن متفقين على أنه كان ماجناً، حسب وصف الطرماح السابق له، أي يشرب النبيذ، وكان فاسقاً، حسب وصف الفرزدق، وهو وصف ينطبق على الفرزدق نفسه، كما ينطبق على حماد، مثلما روى أبو الفرج:

> **«كان حماد يفضل الأخطل على جرير والفرزدق، فقال له الفرزدق: إنما تفضله لأنك فاسق مثله، فقال: لو فضلته بالفسق، لفضلتك»**[1].

فإن كلا الوصفين: المجون والفسق ـ (وهو يعني الشُّربَ هنا لأن

---

(١) الأغاني، جـ ٨، ص ٢٨٦.

الأخطل كان يشرب، في حين اتهم الفرزدق بالنساء) ـ متفقان على أن حماداً كان يمارس هذه التصرفات ممارسة الإنسان الذي ما يزال يضع للمجتمع نوعا من الاعتبار، مهما كانت درجات ذلك المجون وذلك الفسق، فإذا كنا نحتكم في إصدار مثل تلك الأحكام على الاعتبارات الشرعية، فإن في سيرة حماد ما يجعله عضواً طبيعياً في المجتمع الإسلامي في ذلك العصر. وتدل الدلالات المتعددة على صدق ذلك، **بحيث يجد المرء نفسه ملزماً بإيجاد خط عريض فاصل بين العصرين، عصر بني أمية، الذي كان فيه كأي فرد في المجتمع، وعصر بني العباس الذي انتكس فيه حماد رأساً على عقب. فحماد الذي قيل عنه كل تلك الأقوال، نجد ما يناقضها في عصر بني أمية، فهو في هذا العصر** ملازم للمساجد، غير منقطع عنها، فهذا ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ)، يقول:

«**إن رَقَبة بن مَصقلة، طرح نفسه بقرب حماد الراوية في المسجد**»[١].

فلماذا جاء حماد أصلاً إلى المسجد؟ وهل مجيئه ذاك للزراية بأهله، أم لملازمته، خاصة أن تعبير ابن عبد ربه يعني أنه كان يطيل الإقامة فيه، حتى إن رقبة «**طرح نفسه بقرب حماد**»، والطرح لا يعني القدوم للصلاة فحسب، بل البقاء في المساجد حتى بعد أن فرغ الناس من أدائها.

وفي خبر آخر يرويه الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ)، يقول:

«**شهد الكميت الجمعة بمسجد الجامع، فأحاط به علماء الكوفة ورواتهم، فيهم حماد والطرماح**»[٢].

فحماد هنا أحد من يشار إليه في الكوفة من رواتها وعلمائها، يأتي ليحضر أداء صلاة الجمعة في مسجدها الجامع، وبصحبته الطرماح،

---

(١) العقد، جـ٦، ص ٢٩٤.

(٢) مجالس العلماء، ص ٢١٦.

وحضور الطرماح الصلاة يعني حضور حماد الصلاة أيضاً. وهو ملتزم، لم يقل عنه الزجاجي إلا خيراً؛ فهو في هذين الخبرين رجل سويٌ في علاقته بالله، بل إنه رجل له اعتباره في مجتمعه، لم تثر حوله مثل تلك الاتهامات.

وهنا نأتي إلى خبر يرويه أبو الفرج، فيما يروي عنه، دون أن تسقط منه إشارة تقوي اتهاماته السابقة له ـ يقول على لسان حماد نفسه:

«**خرجت فصليت الجمعة**»[1].

وهو خبر يؤكد الخبر السابق في اجتماعه بالكميت، ولكنه خبر يؤكد أيضاً أن حماداً يذهب إلى صلاة الجمعة بمحض إرادته، وبوازع ديني في داخله، وهذا ما أكدته صياغة الخبر عند ابن خلكان (ت ٦٧١ هـ)، الذي قال على لسانه أيضاً:

«**أصلي الجمعة، وصليت في جامع الرُّصافة الجمعة**»[2].

والفعل المضارع: «**أصلي**»، يعني الاعتياد والاستمرار؛ والفعل، «**صليت**»، يعني أنه أدى الصلاة، ولم يتأخر عنها.

هذا من حيث الصلاة، التي هي عمود الدين، والركن الذي يحتكم إليه في رمي مثل حماد بتهم المروق عن الدين والخروج عليه. وهناك ركن آخر من أركان الدين الخمسة التي يجب على المسلم الالتزام بها، وهي أداء فريضة الحج، فحماد يقول عن نفسه في خبر أبي الفرج أيضاً عن اجتماع حماد بعمر بن أبي ربيعة:

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٢.

(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٢٠٧.

«أتيت مكة»[1].

فحتى لو كان حماد جاء لطلب العلم والأدب في مكة، فإن المفترض، ونحن نراه يؤدي الصلاة الجامعة، أن يقوم بأداء فريضة الحج أو أداء العمرة، وهو أمر نجده صريحاً في قسمه ذات مرة:

«لله علي بكل حصاة من هذا الحصى [أي حصى المسجد] مئة حجة»[2].

وهذا قول لا يصدر عمن لا يعتقد في الحج أو يوثّق القسم.

فإن أدت تلك الشهادات إلى قناعة أو شبه قناعة بصلاح حماد وقبوله ضمن الأطر الدينية والاجتماعية؛ وعد ما أحاط به من مزاعم، مزاعم بولغ فيها، فهناك شهادة أخرى، تعزز من قناعتنا بسلامة سيرته، لا سيما فيما يخص الزندقة، فها هو يقول:

لو مات الأخطل مسلما، لشهدت له بالجنة بقوله:
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال[3]

وأخيراً، فلو كان حماد زنديقاً، فكيف التقى المهدي مرتين، كما رأينا، على حد تعبير ابن النديم: «**جالس المهدي**»، والمهدي هو الذي لاحق الزنادقة وأوقع بهم.

وفي ضوء هذه الصورة المشرقة لحماد، ينبغي لنا أن نعيد النظر في تلك الاتهامات له، وأن نقيس حماداً بحياته في العصر الأموي، حيث أمضى الشطر الأكبر منها فيه، لا بما تبقى من حياته في

---

(١) الأغاني، جـ ١١، ص ١٥٧.
(٢) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٩٠.
(٣) المرزباني، نور القبس، ص ٢٠٧.

العصر العباسي، حيث انقلبت صفحته البيضاء لتصبح قاتمة سوداء موحشة، وحيث اختلطت الأسماء، فصار حماد الراوية، هو حماد عجرد، أو هو حماد بن الزبرقان، الذي كان ـ كما نقل عنه الشريف المرتضى ـ «هذه طريقته في التخرم والتهتك». وسوف نتأكد أكثر من صحة ذلك في الحديث التالي عن علاقة حماد بالسلطات السياسية في العصرين كليهما.

الفصل الرابع
علاقاته بالعصرين الأموي والعباسي

١ ـ العصر الأموي:

الحالة السياسية:

قال أبو الفرج:

«كانت ملوك بني أمية تقدمه، وتؤثره، وتستزيره، فيفد عليهم، وينادمهم، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها، ويجزلون صلته»[١].

وفي هذا النص الذي استفتح به أبو الفرج حديثه عن حماد، بيان للأجواء السياسية التي كانت تحيط به، فقد بلغ من القدر ورفعة الشأن حداً بعيداً جعل الملوك والأمراء يستحضرونه ليسمعوا إنشاده. وتعبير أبي الفرج، تعبير سياسي في المقام الأول، لأنه بهذا التحديد الدقيق «**ملوك بني أمية**»، يعني أن التوجه السياسي للخلافة الأموية، كان في صالحه، فهو محسوب في عداد الموالين لهم، الراغبين في إيثارهم. وهكذا قال ابن خلكان نقلاً عن أبي الفرج:

«كانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره، وتستزيره، فيفد عليهم، وينال منهم، ويسألونه عن أيام العرب وعلومها»[٢].

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٦٨.

(٢) وفيات الأعيان، جـ ١، ص ٢٠٦.

فابتداء بزياد بن أبيه، أول من اتصل به فأنشده من الأمراء ـ إن كان اتصل به ـ، حتى بلال بن أبي بردة، وخالد القسري، ثم يزيد بن عبد الملك، وهو أول خليفة يتصل به، فأخوه هشام بن عبد الملك، فالوليد بن يزيد، كانت علاقات حماد علاقات تقدير منقطع النظير حتى ليقول جواد علي عن علاقته بالوليد بن يزيد:

«كان الخليفة الوليد بن يزيد، يعطف على حماد كثيراً، ويشمله برعايته، ومجالسه، ويتباحث معه في الشعر»[1].

والواقع أن العطف لم يكن من الوليد بن يزيد فحسب، بل نجده أيضاً من هشام بن عبد الملك الذي أمر له **«بمنزلة وجراية»**[2]، وهذا يعني عدم انقطاع رزقه واستمرار مورد دخله، وذلك إضافة إلى ما كان يمنحه من هدايا، إذ أمر له بخمسمائة ديناراً وجملاً مهرياً وبجاريتين وبمئة ألف درهم[3] وبـ **«فصيلة سنية وحملان»**[4]؛ ويبين مبلغ هذا العطف في عهد هشام أنه كتب إلى الأمير يوسف بن عمر قائلاً:

«ابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به، غير مروع ولا متعتع»[5].

وليس أدل على هذا التقريب والعطف من أنه كان منقطعاً، قبل أن يتصل بهشام، إلى أخيه يزيد بن عبد الملك[6]. ويبين تبسطه في الحديث مع مروان بن أبي حفصة عندما اتهمه بأنه لحّانة، وحاول التهجم عليه، مدى المكانة التي وصل إليها حماد، حتى إنه يتحدث مع مروان حديث الواثق بنفسه غير العابىء بالاتهام والاستهجان، وهو في حضرة الخليفة الوليد.

---

(١) المفصل، جـ ٩، ص ٣١١.
(٢) الأغاني، جـ ٢٣، ص ٣٦٨.
(٣) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ص ٧٣ ـ ٧٤.
(٤) المصدر نفسه، جـ ٢٣، ص ٣٦٨.
(٥) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٧٢.
(٦) المصدر نفسه.

٢ ــ العصر العباسي:

أ ــ الحالة السياسية:

ليس في أخبار حماد، ما يدل على اتصاله بأبي العباس السفاح (١٣٢ هـ/ ١٣٦ هـ)، أول خليفة عباسي، ولكنه اتصل بأحد أشهر قواد بني العباس، أبي مسلم الخراساني (قتل سنة ١٣٧ هـ)، فأنشده[١]، ولعل هذا اللقاء جرى في عهد السفاح أو قبيل قتله سنة ١٣٧ هـ. وتكاد المدة بين مجيء العباسيين إلى الخلافة سنة ١٣٢ هـ، حتى خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦ هـ) تكون غامضة منسية، ولم يرو فيها خبر يتعلق بأي لقاء أو استدعاء عدا ذاك.

وفي عهد أبي جعفر المنصور (١٣٦ هـ ـ ١٥٨هـ)، عاد حماد إلى الظهور، فكان أن استدعاه المنصور نفسه، كما رأينا، إلى بغداد ذات مرة، وأرسل إليه لمعرفة رأيه مرتين. وقد بلغت الزراية بحماد في هذا العهد، أن وُصِف بما وُصِف به من تحلل أخلاقي، واستهتار وصل حد الإدمان والتعري أمام الملأ. **وواضح أن هذا التعري والاستهتار، إنما هو محاولة من السلطات العباسية ودعاتها لتعرية بني أمية الممثلين في حماد الآن.**

ففي لقاء حماد بجعفر بن أبي جعفر المنصور (ت ١٥٠ هـ)، اعتراه الخوف والرهبة منه، حتى كاد ينسى ما يود روايته، وكانت نهاية ذلك اللقاء أن أُخرج من المجلس مجروراً مسحوباً، فتَخرّق لباسه، وتكسّر سلاحه، ولقي شراً عظيماً[٢].

---

(١) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٣٠٨.

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ص ٧٨ ـ ٧٩.

وفي اجتماعه بالمفضل الضبي عند المهدي (١٥٨ هـ/ ١٦٩ هـ)، قَبِل المهدي رأي المفضل في أبيات زهير، وأعلن تشهير أمر حماد[١].

تلك صورة موجزة عن علاقة حماد بالخلفاء في عصر بني العباس. أما عن حالته في هذا العصر، فهي حالة وصلت من التدني درجة تجعل المرء يستغرب من تلك الأقوال التي وصفته في أمن وطمأنينة حتى إنه يرتاد الحانات ويحضر مجالس اللهو والمجون، وكأنه عامل متحرك نشِط في الأجواء الأدبية في هذا العصر.

إن ما تقدمه الروايات عن حياته في هذا العصر، لا يدل على أنه كان يعيش عيشة مستقرة، بل إنها تقدمه خائفاً متوجساً، يخشى العذاب والمباغته في أية لحظة، وتبين الروايات التالية، مدى البون الشاسع بين العصرين؛ فالزجاجي يروي عن مروان بن أبي حفصة، الذي كان حماد يسخر منه، عندما تهجم عليه في حضرة الوليد بن يزيد، فيقول:

«بينا أنا في بعض الطرق، فإذ إنسان من خلفي يغمزني بسوطه فالتفتُّ، فإذ حماد، فقلت: لا إله إلا الله، أبَعد تلك الحال؟! قال: نعم، ذهب ويحك ما كنت تعهد، ذاك زمان وهذا زمان.

قال: وكانت قد جاءت الدولة العباسية»[٢].

فكل مفردة من مفردات هذه الإفادة الجليلة الثمن، تكشف كشفاً صريحاً عَمّا آل إليه مقارنة بعصر مضى وانقضى: إنه هنا في بعض الطرق، ليس له وجهة محددة يلجأ إليها كعادته، ولا يُعيره المارّةُ اهتماماً يذكر. وهو مجرد إنسان، إنه أحد أولئك المارة العابرين في شأنه، دون أن يحظى من أي منهم بتقدير أو اعتبار. أما قوله: «**خلفي يغمزني بسوطه**»، فهو

---

(١) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٢) مجالس العلماء، ص ٢٨.

إضافة إلى أنه تأكيد على العزلة التي أحاطت به، فإنه يمكن أن يقارن حمله السوط الآن، بما كان يحمله من سلاح في السابق. وفي دهشة مروان عندما رآه: «**أَبَعْدَ تلك الحال؟!**»، مقارنة كاملة بين العصرين، عندما كانت حاله عزيزة محترمة، وعندما أصبحت الآن مهانة محتقرة. وهكذا اختتم حماد نفسه، الروايةَ في تأثر شديد وحزن عميق، عندما قال: «**ذهب ويحك ما كنت تعهد، ذاك زمان وهذا زمان**». وفي الإشارة إلى الزمان السابق، اختصار لتلك الحياة السعيدة الهانئة، وفي الإشارة إلى الزمان الآخر، إيجاز آخر للحياة الجديدة بعد أن جاءت الدولة العباسية.

ويمكن أن نضيف هنا، أن مجيء الدولة العباسية نفسه، شكل له كارثة كبرى، فكان شبح الموت والخوف حاضراً دوماً أمامه، وهذا واضح فيما سيأتي من حديث، وفيما عبر عنه عند لقائه بأبي مسلم الخراساني، فهو يقول:

«**أرسل إلي أبو مسلم ليلاً، فراعني ذلك، فلبست أكفاني**»[1].

ذلك كان في أول الدولة العباسية، أي في عهد السفاح، أما في عهد المنصور، فإن الحالة كانت أسوأ، إذ انكفأ حماد على نفسه في مدينته الكوفة منقطعاً عن الحياة والأحياء، بعد أن تفرق شمله وشمل أمثاله، يقول أبو الفرج:

«**خرج جماعة من الشعراء في أيام المنصور من بغداد في طلب المعاش فخرج يحيىٰ بن زياد... إلى البصرة، وخرج حماد عجرد إليها معه، وعاد حماد الراوية إلى الكوفة...**»[2].

ويدعم هذا الانعزال والانكفاء على الذات، ما لقيه من جعفر بن أبي

---

(١) ابن عبد ربه، العقد، جـ ٥، ص ٣٠٨.

(٢) الأغاني، جـ ١٣، ص ٣٠٠.

جعفر المنصور، الذي أخرجه من مجلسه مجروراً، فهذا هو نفسه يقول للرسول الذي أراد استصحابه للأمير:

«دعني! فإن دولتي كانت مع بني أمية، وما لي عند هؤلاء خير»[1].

ولعلنا نلاحظ الإشارة إلى جميع خلفاء وأمراء بني العباس ممن عاصرهم، بـ **«هؤلاء»**، وهي إشارة تنبىء عن الرفض وعدم القبول. ثم إن في قوله: **«دولتي»**، استحضار كامل للماضي، حيث كان حقاً منتمياً إلى ذلك الكيان.

وبالمثل يأتي قوله الآخر لتأكيد هذه المقارنة، فيقول مخاطباً مطيعاً، الذي توسط له عند جعفر هذا:

«ألم أخبرك إني لا أصيب منهم خيراً، وأن حظي قد مضى مع بني أمية!»[2].

وهنا يستخدم الضمير **«هم»**، بدلاً من التصريح باسمهم، كما فعل عندما استخدم اسم الإشارة، أما بنو أمية، فهو في كلتا الحالتين، يأتي بهم كما هم.

ويلاحظ أن قوله ذاك قد سحب المدة الزمنية منذ ابتداء حكم العباسيين حتى خلافة المنصور، إذ توفي جعفر بن أبي جعفر المنصور، سنة ١٥٠ هـ.

وأخيراً يأتي تعليق أبي الفرج ليبين المكانة الجديدة التي أدركها حماد مع بني العباس، فيقول:

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٨.

(٢) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٩.

«كان مُطَّرَحاً مَجْفُوّاً في أيامهم (أين بني العباس)»[1].

ولعل مما يكشف لنا عن النفور المتبادل بين الطرفين: بني العباس وحماد، أنه عندما أهدى إليه صديقه دستجة نبيذ، كتب إليه قائلاً:

«لو عرفتَ في العدد أقل من واحد، وفي الألوان شراً من السواد، لأهديته إلي»[2].

فالسواد، شعار بني العباس، أو بني هاشم بصورة عامة، أصبح يعادل عنده الشر كل الشر، ولا شر بعده.

بل إنه حتى لو قبلنا الروايات التي توصله إلى عصر الرشيد، فإنها تظهره بمظهر الخائف المتوجس ذي الحاجة والفاقة، فها هو يقول عن نفسه، حسبما يروي أبو الفرج:

«حماد الراوية... قال: ... أيام هارون الرشيد بالرقة، وقد ظهرت...»[3].

وهذا يعني أنه ظل طول فترته تلك، يتجنب المحافل العامة، والمواطن المكشوفة، حتى لا يتعرض لأذى السلطات ومطاردتها.

وتبدو الفجوة بين مشاعره في العصرين، في رسالة هشام بن عبد الملك إلى واليه التي يقول فيها:

ابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروع ولا متعتع»[4]. أما في الجانب العباسي، فقد رأينا كيف روع وتعتع.

ومن ثم نعود لنسأل أنفسنا، ما موقفنا من تلك الروايات

---

(١) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٣) الأغاني، جـ ٣، ص ٢٦١.

(٤) المصدر نفسه، جـ ٦، ص ٧٢.

العباسية التي أظهرته الأكثر مجوناً، والأقبح وجهاً، والأحقر شخصاً.

ب ــ الحالة الاقتصادية:

لم تكن حالة حماد الاقتصادية في الخلافة العباسية بأحسن حالاً من حالته السياسية، فعلى الرغم مما وصف به من إقبال على الشراب في هذا العصر، وهو ما يتطلب وفرة مالية، فإن الأخبار الأخرى تناقض ذلك، وما هي إلا انعكاسات للوضع السياسي. فعلى الرغم من أن المنصور استدعاه ثلاث مرات. فإن رسوله لم يحمل له أية هدية أو عطية.

وعلى الرغم من أن المهدي في مقابلة أخرى بحماد منحه عشرة آلاف درهم، وخلعتين من كسوة الشتاء والصيف[1]، فإن هذا العطاء الأخير، لا يعادل ذلك التشهير الذي تعرض له عند لقائه أول مرة مع المفضل الضبي ومنحه عشرين ألف درهم[2]، كما أنه لا يقارن بما كان بنو أمية يمنحونه إياه، أو بما منحه بنو العباس لأمثاله من الرواة والعلماء في كل مرة يلتقون فيها بهم، حتى إن تلك الحادثة التي اختلط فيها الرشيد بالمهدي في رواية السيوطي حول أبيات زهير نفسها[3]، جعلت الرشيد ينصرف عن حماد، وهو المعروف بسخائه وعطائه، فخرج من عنده دون أن يحصل على شيء.

فحماد، عاش في هذا العصر مجفواً من أصحاب المال والثراء، خلفاء كانوا أو أمراء، وإذا كانت تلك الإشارات تكشف عن انقطاع الموارد الاقتصادية لديه، فما تبقى من روايات عن حياته ليكشف حقيقة عن سوء الحال والفاقة، فأبو الفرج يروي قائلاً:

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٦.

(٣) شرح شواهد المغني، جـ ٢، ص ٧٥٤.

«دخل مطيع بن إياس ويحيىٰ بن زياد على حماد الراوية، فإذا سراجه على ثلاث قَصَبات، قد جُمع أعلاهن وأسفلهن بطين، فقال له يحيىٰ بن زياد: يا حماد، إنك لمسرف مبتذل لحر المتاع، فقال له مطيع: ألا تبيع هذه المنارة وتشتري أقل ثمناً منها وتنفق علينا وعلى نفسك الباقي وتتسع به؟ فقال له يحيىٰ: ما أحسن ظنك به! ومن أين له مثل هذه؟ إنما هي وديعة أو عارية، فقال له مطيع: أما إنه لعظيم الأمانة عند الناس! قال له يحيىٰ: وعلى عظيم أمانته، فما أجهل من يُخرج مثل هذه من داره ويأمن عليها غيره! قال مطيع: ما أظنها عارية ولا وديعة، ولكني أظنها مرهونة عنده على مال، وإلا فمن يُخرج هذه من بيته! فقال لهما حماد: قوما عني... واخرجا من منزلي، فشر منكما من يدخلكما بيته»[1].

ولعل هذه الحادثة مما يتخذ دليلاً على بخله، ولكنها في حقيقة الأمر، حادثة تندرج في ظروفه الجديدة سياسياً واقتصادياً. فالسراج على ثلاث قصبات مجموعة بطين، ليست شيئاً ذا قيمة، فما هو إلا سراج عادي، اتخذه مطيع ويحيىٰ سخرية من حماد، الذي وصل به الأمر إلى أن يستخدم هذا النوع من السراج، ويدل رده عليهما، على مبلغ تأثره من هذه السخرية الضاحكة، وهو على ما هو عليه من شظف العيش وقتارته.

وفي رواية ابن خلكان للحادثة نفسها يختتمها حماد بقوله:

«وهل عند أحد من المال ما يرهن؟»[2].

وهو توضيح آخر للفاقة والحاجة اللتين عاشهما حماد في هذا العصر. ويبين انكساره وألمه من أوضاعه المادية، وما لقيه بعد إخراجه من عند

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ص ٧١ ـ ٧٢.

(٢) وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٣٠٧.

جعفر بن أبي جعفر المنصور، فأبو الفرج يقول تعليقاً على ما تعرض له من أذى:

«وكان أغلظ من ذلك كله، وأشد بلاء، إغرامي ثمن السواد وجفنِ السيف»[1].

ذلك أنه لم يكن لديه لباس مناسب يرتديه للقاء الأمير، ولم يكن لديه سيف يتمنطق به، فاستعارهما[2]. وبعد جره وسحبه، تمزقت الثياب وتهشم جفن السيف، فكان البلاء عليه مضاعفاً، فهو لم ينل من الأمير ما كان يرجوه، وليس لديه ما يؤدي به قيمة السواد وجفن السيف، حتى صار كل ذلك: «**أغلظ... وأشد بلاء**».

والحقيقة أن هذا التعبير الأخير الذي يعبر عن ضائقة مالية ونفسية تتمثل في العجز عن سداد قيمة السواد، رمز الشر عنده، وقيمة غمد السيف، كناية عن الفاقة والفقر ـ ليختصر كل الأقوال عن حياته آنذاك.

---

(١) الأغاني، جـ ٦، ص ٧٩ جفن السيف: غمده.

(٢) المصدر نفسه.